أطفأتُ شمعتي

https://bbibliomania.com/

أطفأتُ شمعتي

رواية لـ

رنيم زيداني

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

書誌事項

- **الكتاب: أطفأتُ شمعتي**
- **نوع العمل: رواية**
- **المؤلف: رنيم زيداني**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2018 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2018 / 20357**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-63-4**

- تدقيق لغوي: ببلومانيا
- الغلاف: ساري مارتيني
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: https://bbibliomania.com/

رواية مقتبسة من الواقع..

ما بين الحقيقة والخيال، ما بين الحرب والحب..

عاشت الكاتبة السورية معظم أحداث الرواية مع بداية الحرب على سورية، ثم أجبرت على الرحيل متخذة طريق الهجرة والغربة ملجئا، إلى أن انتهى بها المطاف في فيينا عاصمة النمسا.

المقدمة

جلست وحدها على ذاك المقعد المقابل لنهر الدانوب.. تأملت المشهد المبدع أمامها..

المشهد الذي لا يمكن وصفه في روايتها، لكنه يعطيها السكينة والإلهام..

كان الهواء يداعب خصلات شعرها الحريري الطويل.. الجو يتأرجح ما بين البرودة والدفء..الشمس تحجبها الغيوم تارة ثم تتخلى عنها تارة أخرى..

احتضنت قلبها الوحيد.. فتحت دفترها الجديد..تنهدت بعمق ثم بدأت تكتب :

{ قبل أن تقرع الباب تأكد من صدق غايتك، فالأبواب كثر والغايات كثيرة، لكن الصدق نادر الوجود في هذا الزمن..

حينما تسد الأبواب جميعها في وجهك، ابحث عن المفتاح..

قد يطول البحث سنوات وسنوات.. قد يكون أشبه بالبحث عن قوقعة لؤلؤية ذات نسيج بلوري وألوان قوس قزح في أعماق البحار، لكنه حتما موجود لأنه قدرك..

لا بد أنك سألت نفسك يوما (ما الهدف من هذه الحياة!!!)

الإجابات تختلف دون الوصول لعمق المعنى..

الهدف من وجهة نظري هو استثمار الوقت لبناء مستقبل أفضل للجيل القادم..

هو إصرارك على البحث الطويل عن المفتاح..

هو قدرتك على التعايش مع آلامك لترقد بسلام..

لا بد أن سؤالا آخرا راود فكرك أيضا!

ما قيمة الذكرى إن كانت الأيام تؤلمنا؟

إن الطاقة الدماغية التي تخزن ذكرياتنا ترمي التفاصيل الصغيرة القاسية..

تلك التفاصيل التي أرهقتنا حين تخبطنا في سبيل التخلص منها..

في حين أنها تحتفظ جيدا بالجمال العميق المطلق، جمال وخلاصة التجارب التي مررنا بها حين أدركتنا الحياة..

لكننا لو عدنا بذاكرتنا جيدا سوف نشعر بقسوة الأيام التي مضت..تلك التي نحيا بالحنين للعودة لها دون جدوى..

لأجل هذا كله خلق النسيان..

رغم أن محاولات النسيان مثل مراحل تطور القمر تماما..

بدرا فهلالا ثم يختفي. لكنه يعود بدرا بكامل رونقه بل وأقوى سحرا..

هو في الحقيقة لم يختف، لكنه اختبأ عن أعيننا، كي تتألم قلوبنا شوقا لرؤيته..

فلسفة الحياة قد تكون أعمق بكثير من بساطة عقولنا البشرية..

داخل كنوز العمر يمكننا أن نلامس السعادة التي نسعى جاهدين للوصول إليها..

حين نتفكر جيدا في معجزات الخالق..

نتوصل إلى تلك النتيجة القابعة تحت حدود الأرض..

(الألم هو الزهرة السوداء التي خلقت داخل أعماق الكون حين كنا ترابا. أي قبل أن يخلق الله سيدنا آدم عليه السلام)

تعايشنا مع آلامنا هي السبيل للخلاص.. هي الحقيقة الثانية بعد حقيقة الموت..

الحروب قائمة منذ بدء الخلق حتى الأزل..

الحب وحده من يروي أحداث الحكاية..

هي حكاية وطن مغتصب.. حكاية حب ممزق منهك القوى..

تجري الأيام مسرعة كسرعة البرق.. تترك في داخلنا لحظات عميقة لا يمكن أن تنسى.. لحظات تكاد أن تكون الحياة بأكملها..

عندما لا نميز بين الحق والباطل.. بين الظالم والمظلوم.. بين الواقع والخيال .. إنها غربة وطن..

إنها الحرب التي ابتلعت أجسادا بريئة.. أجساد أطفال.. نساء.. شيوخ وشباب كادوا أن يكونوا المستقبل المشرق.. الذي تحول لجحيم..

كيف يمكن للوردة العيش على أطراف مستنقع نتن!

كيف يحيا الغزال في غابة تملؤها الذئاب!

وهل يوجد مكان للبراءة داخل جبروت الحرب؟؟

لم تكن سورية قبل عدة سنوات بلدا مثالية..

كانت كسائر بلدان العالم فيها الأمان والخوف معا..

فيها السلام والظلم معا.. الجمال والقبح.. الصدق والكذب.. الغنى والفقر.. الحياة والموت..

كل شيء يخطر بالبال إلا شيء واحد فقط لم يكن يسكنها ألا وهو : (الحرب)

إن أمعنت النظر جيدا لن تجد في حربنا طرفا رابحا..

جميعنا خاسرون. لم يكن هناك اعتدال في كفة الميزان إطلاقا..

كل سوري عاش على أرض بلاده في فترة الحرب خاسر..

حتى ذاك الذي ربح المال خسر ما هو أغلى بكثير (الضمير)..

الأرباح كانت خارجية فقط، أما في الداخل فكلنا مزقت أرواحنا الحسرة على الماضي القريب.. كلنا خسرنا أهم ما كنا نمتلك يوما -الوطن- }

تلك الكلمات كانت مقدمة روايتها التي تحكي معظم ما استوطن عقلها من الذكريات ..

بدأت قصة هذي الفتاة مع بداية الإعصار الفوضوي الذي أودى بالبلد إلى مطاف منفي.. إنها سارة فتاة جميلة كجمال الياسمين الشامي رقيقة كعذوبة ماء بردى. عاشت أيام شبابها ضمن فترة لم يشهد التاريخ لها مثيلا..

لم تكن أحداث تلك الرواية مكتوبة عن عبث.. تلك المشاعر لم تولد من فراغ، وذاك الحنين لم يكن سوى ضجيج الروح التي اغتربت عن الجسد ..

هذي الرواية تحكي قصصا ممزوجة بالحب والألم والشوق المفرط.. تحكي واقعا وخيالا بآن واحد..

يبقى السؤال الغامض الذي يطرح نفسه منذ البداية : (أين النهاية؟؟؟؟؟!!!!!)

الخريف هو ذاك الفصل الماكر الذي يبدل نفوسنا وأحوالنا بطريقته الخاصة..

هو بداية الخير، بداية المطر، بداية البرد..

هو إحدى البدايات التي أهوى وجودها..

ربما قليلون هم من يحبون البرد، لكني أجد فيه شيئا يشبهني.. بقوته بهدوئه وعمق تأثيره..

استبدال لون الطبيعة الخضراء بالأصفر قد لا يحوز على إعجاب الكثيرين مثلي، لكن الأصفر يروقني وبشدة..

تساقط أوراق الشجر قد يعني للناس موتها، بينما أجده من وجهة نظري بداية حياة جديدة لأوراق أجمل من سابقتها..

01.11.2010

إنه يوم مولدي، إذ أنني سوف أبلغ تسعة عشر عاما من عمري..

استيقظت كعادتي في السادسة صباحا..

ارتديت ملابسي، وضعت قليلا من الكحل في عيني، أحمر الشفاه الوردي، خاتمي الألماسي المفضل، وثلاث بخات من عطري..

خرجت لكلية العلوم التي التحقت بها السنة الماضية بحماس وهمة عالية..

كم أعشق هذا الطريق! إدلب حلب..

كل يوم أقصده ذهابا وإيابا.. أخرج باكرا وأعود قبل غروب الشمس بقليل..

صعدت الحافلة، جلست قرب النافذة (مكاني المفضل) كي أتأمل جمال الطريق وسحره..

أشعر بسكون روحي بذاك التأمل..

سكون لا يعرفه إلا من عاشه حقا..

انطلقت الحافلة وبدأت أول أغنية فيروزية..

يا ورق الأصفر عم نكبر عم نكبر.. طرقات البيوت عم تكبر عم تكبر.. تخلص الدني وما في غيرك يا وطني..

ياا وطني.. بتضلك طفل صغير..

إنها فيروز ذات الصباحات الأروع في الوجود..

لم أكن أعلم كم هي مؤلمة معاني الأغنية.. لكنها بطريقة ما كانت مؤثرة، عميقة، وربما حزينة..

كل يوم أعيد نفس الكرة.. كل صباح تغني فيروز فأشعر كأنما أسمعها لأول مرة، ويشرد ذهني بقصص وحكايات وأمنيات..

بدأت أقول في نفسي : آه.. ليت لي حبيبا يهديني وردة ويقول لي كل عام وأنت حبيبتي..

تمنيت ذلك رغم خوفي من الحب..

نعم! أعترف أني أخاف الحب.. بل أخاف على قلبي من حبيب يغدر به، أو من سوء الأقدار تأسره ثم تهوي به..

لعل خوفي الأكبر من نظرة مجتمعي لهذه الجريمة البشعة (الحب) ..

ربما كان علي أن أتمنى شيئا ينال إعجاب من حولي أكثر، أي يجب أن أتمنى التفوق الدراسي كي أكون أكثر تهذيبا ورزانة..

هذا ما اعتدت عليه منذ نعومة أظفاري، فأنا الفتاة العاقلة ذات القلب القوي الذي لا يخضع للمشاعر الزائفة..

وصلت الجامعة بعد أقل من ساعة ..

- سارة حبيبتي لقد تأخرت!! هيا إلى القاعة..
- قولي صباح الخير أولا يا لونا..
- صباحك سكر يا صديقتي..

(لونا أعز صديقاتي في الكلية تعرف الكثير عني، أعتبرها أختا لي لأنني الفتاة الوحيدة في عائلتي ولدي أخ وحيد أيضا)

أنهينا المحاضرة لكن ثمة شيء غريب يحدث من ورائي..

ما قصة أصدقائي اليوم!

- لونا : سارة دعينا نذهب للمقهى نشرب شيئا ما..

- هيا فلنذهب..

- حين دخلنا المقهى كانت المفاجأة على الطاولة. قالب كاتو كتب عليه اسمي أوشمعة مكتوب عليها أرقام عمري (19).. أصدقائي يجلسون على تلك الطاولة يغنون لي (سنة حلوة يا سارة)..

- لا أعرف كيف أشكركم لكنني تفاجأت كثيرا.. (ابتسمت بخجل)

إني سعيدة حقا، أنتم أجمل أصدقاء على الإطلاق..

– هيا إذا اجلسي في مكانك تمني أمنية وأطفئي شمعة ميلادك..

جلست بهدوء أغمضت عيناي وتمنيت :

(يا رب اجمعني بنصفي الآخر، قدري المنتظر، رجل أحبه ويحبني ونبقى معا لآخر عمرنا)

فتحت عيناي وأطفأت شمعتي..

الهدايا كانت رائعة رغم بساطتها وعدم التكلف بها..

جلسنا نضحك ونأكل ونحتفل.. ثم اقترحت لونا رحلة لقلعة حلب بعد إنهاء المحاضرات..

انطلقنا للقلعة سويا.. يا لروعتها يا لجمالها وأصالتها..

شعرت حينها أنني أميرة خارجة من كتب التاريخ..

الإحساس بالدفء فيها جعلني أسيرة بها كحسناء من حسناوات الروايات القديمة..

لا يمكن لأحد أن يزور قلعة حلب ويخرج منها كما دخل..

العراقة فيها مليئة بالسحر والنقاء..

أحجارها تكاد تكون كاللؤلؤ المكنون لناظرها..

لم تكن رحلة عادية.. بل كانت رحلة من العمر لا يمكن نسيانها..

جلست أنقش حروف اسمي على تلك الحجارة العتيقة. على أمل العودة للمكان مرة أخرى..

اليوم شعرت حقا أن يوم مولدي يوم مميز..

شعرت أن الاهتمام شيء جميل جدا.. وأن الصداقة أروع ما في الوجود..

لا يمكنني أن أنكر سعادتي ونشاط روحي تلك الفترة..

فأيام الدراسة لا تعوض.. تحديدا بوجود الصداقة الحقيقية.. والمغامرات الشيقة.

***

لونا فتاة منطقية وراقية جدا، أحبت شابا من زملائنا في الكلية، أحبته بصدق ولكنها لم تفصح له بعد عن حبها..

شعرت أنها تحتاج مساعدة أو نصيحة من أحدهم بطريقة ما، لأجلها ولأجل قلبها الهاوي الذي يتقلب بين الحب واللاحب بغموض..

قررت أن أسألها عما يدور في خاطرها :

- لونا ما بك يا صديقتي؟
- لاشيء، أنا بخير.
- أنا أعرفك جيدا، إنك لست كذلك. أراك حزينة هذه الأيام، أتخفين عني أنا سارة؟ سامحك الله..
- لا أريد أن أشغل بالك يا سارة. الأمر ليس مهما حقا..
- عماد وراء حزنك أليس كذلك؟
- لست أدري، ربما!
- إنه أشطر شاب معنا في الكلية، ذكي وخلوق ومهذب..
- أجل،ربما هذا ما جعلني أقع بحبه..
- لم لا تكلميه أنت؟ لم لا تحاولين لفت انتباهه بطريقة ما؟ الشاب خجول وأنت أيضا خجولة ولا أحد منكما يبادر بشيء..
- وأنا كالبلهاء أفكر به دون أن أفعل شيء سوى الخجل أمام عينيه!

- هههه.. لونا لست بلهاء بل أنت فتاة مهذبة، لكن برأيي عليك أن تعطيه القليل من الإشارات كي يفهم ويتجرأ.

- فكرت مرارا وتكرارا بالأمر بلا جدوى، فحين أراه من بعيد تذهب كل الأفكار من عقلي مرة واحدة..

- يخفق قلبك بشدة وتحمر وجنتاك خجلا والجميع يلاحظ ارتباكك وقلة كلامك إلا عماد، أظنه خجول جدا لدرجة أنه هو أيضا يحمر وجهه خجلا عندما يراك.. أنتما الإثنان لا تصلحان للحب قولا واحدا، فالخجل الشديد والحب الشديد لا يجتمعان..

- لذلك قررت أن أنسى أمره، أفضل ألا نتكلم عنه ثانية ما رأيك؟

- كما تحبين يا لونا، لا يهمني سوى راحتك صدقيني..

- أعلم ذلك.. لكنني تعبت من التفكير حقا وأريد أن أعطي قلبي استراحة فهو مرهق حزين. وأنا أشعر أني تورطت في حب الرجل الخاطئ..

***

ذات يوم كنت واقفة وحدي في ساحة الكلية أنتظر المحاضرة التالية. لمحت عماد من بعيد، اقترب مني وسلم علي :

- مرحبا سارة..
- أهلا..
- كيف حالك؟
- الحمدلله بخير..

صمت قليلا ونظر إلى هاتفه، ثم رفع نظره إلي ثانية. كان وجهه قد احمر خجلا وارتباكه واضح من نظرات عينيه.

قال لي بتردد :

- في الحقيقة أردت أن أحادثك قليلا إن لم يكن لديك مانع..
- تفضل..
- هنا؟ ألا تقبلي مني دعوة لشرب القهوة معا؟
- ليس لدي الكثير من الوقت، يمكننا التحدث هنا..
- كما تريدين.. حسنا لقد فكرت كثيرا لكنني قررت أخيرا أن أكلمك بالأمر.
- خير إن شاء الله! تكلم ما الأمر؟
- منذ رأيتك وددت أن أقول لك هذا الكلام لكنني خجول قليلا!

- تقول لي أنا؟

- نعم.. أنا لست مثل باقي الشباب صدقيني أنا جاد لأبعد الحدود.. أنا.. معجب بك كثيرا!

- لحظة لحظة! لقد فاجأتني حقا. وأنا التي كل ذاك الوقت ظننت أنك معجب بصديقتي لونا!

- يبدو أن ظنك كان خاطئا..

صمتنا قليلا ثم قلت له :

- أعتذر منك يا عماد، كنت أحسبك أخا لي وأرجو أن نبقى هكذا..

- أأعتبر كلامك هذا رفضا؟

- اعتبره كما تشاء، أنت شاب خلوق ناجح وصديق مخلص، لا أتمنى أن تتعدى علاقتنا الصداقة.. والآن أستأذنك فقد تأخرت عن المحاضرة..

- سارة! انسي الأمر ولنكن أصدقاء كما تريدين..

- حسنا، إلى اللقاء..

- إلى اللقاء، انتبهي لنفسك..

لقد صدمني اعترافك يا عماد حقا.. تألمت لأجل لونا ولأجل خيبتك، هل كان ارتباكك كله لأجلي؟ وأنا ظننته لأجل صديقتي..

هل كان وقوفك بجانبنا من أجل اختلاس النظرات لي؟

حقا الدنيا غريبة والقلوب محيرة..

وقفت عاجزة حائرة ماذا علي أن أفعل؟ هل أخبر أعز صديقاتي بأن من تحبه معجب بي؟ أم أخفي الأمر وأترك قلبها معلق به وهو لم يفكر بها أبدا!

فكرت كثيرا ثم قررت أن أصارحها. انتظرتها عند الحديقة التي اعتدنا الجلوس في أحد مقاعدها.

- لونا كيف حالك..
- بخير وأنت؟
- الحمدلله، أردت أن أخبرك شيئا لكن ترددت كثيرا..
- ما الأمر؟
- عماد لقد عرفت عنه كل شيء..
- ما الذي عرفته؟
- إنه مغرم بابنة عمه ويريد أن يخطبها قريبا..
- ومن الذي قال لك ذلك؟
- صديقتي تعرف ابنة عمه وبالصدفة تكلمنا عن الأمر..
- كنت أعلم أن قلبه لم يكن لي، لكنه الحب من طرف واحد، لم يكلمني عماد يوما عن مشاعره ولا عن حبه، أنا من توهمت الأمر برمته..

- لا تحزني يا صديقتي، أردت فقط أن أصارحك كي تنسي أمره، فهو لا يليق بك، بل يليق بك شاب أجمل وأذكى منه بكثير..

- لست حزينة لا عليك، انسي الأمر..

ابتسمت لونا لكنها أخفت الدمعة خلف ابتسامتها، كانت قد أحبته عن بعد، دون اعتراف، دون كلام، ودون ضجيج. وعليها اليوم أن تنساه وحدها دون أن يشعر بها أحد..

***

15.03.2011

يوم الجمعة مميز جدا في عائلتنا. إنه الأجمل بين أيام الأسبوع. نستيقظ باكرا كعادتنا ثم يذهب أخي مجد ليحضر لنا فطارنا اللذيذ الطازج (الحمص والفلافل والفول). بعد الإفطار يصلي أبي ومجد في المسجد صلاة الجمعة. حينها نكون أنا وأمي قد جهزنا أنفسنا لزيارة بيت الجدة..

يجتمع أفراد العائلة كل جمعة على سفرة الغداء. تصنع جدتي أشهى المأكولات وألذ الحلويات..

اعتدنا هذا الأمر منذ طفولتنا. كنا ومازلنا ننتظر سعادة وبهجة هذا اليوم بكل شوق. نسترق منه المرح والضحك ونستشعر معنى لمة ودفء العائلة..

وها نحن اليوم مجتمعون، لكن في وسط ضحكاتنا التي علت سمعنا ذاك الخبر الصادم..

جلس الجميع ينصت للأخبار في التلفاز التي كان مفادها : (مظاهرات ضد النظام السوري في العديد من المناطق).

بدأ النقاش عن الأمر بين أفراد العائلة وأنا جلست أستمع للآراء :

- وأخيرا قرر الشعب أن يستيقظ من غفلته. هؤلاء هم الرجال حقا فلينصرهم الله!

- أي غفلة وأي رجال؟ هل تعلم ماذا تعني كلمة ثورة؟ تعني أن الحرب بدأت والموت قادم. تعني أننا سوف نخسر أرواحا كثيرة من شبابنا..

- لا الأمر ليس كذلك، نحن لا نريد حربا فالثورة سلمية حتى يتخلى الأسد عن السلطة!

واستمر النقاش طويلا. كل شخص له رأي وكل رأي قابل للنقاش لكن السؤال الأهم : إلى أين نحن ذاهبون؟ للتغيير والتطوير أم للحرب!

كان أبي متحمسا فهو من الأساس معارضا فكريا.. قلت له : ما رأيك يا أبي بالحدث؟

قال : يا ابنتي هذا النظام فاسد وعليه أن يرحل..ولن يتحقق ذلك إلا إذا أصبح الشعب السوري يد واحدة.. سوف تقوم ثورة حق وسوف ننتصر بإذن الله..

هزتني كلمات أبي، شجعتني وأعطتني القوة والحماسة كي أقف وقفة حق مع أبناء بلدي ..

رغم أنني لم أكن أعرف ما الذي تعنيه كلمة ثورة إلا من كتب التاريخ..

لكنني أظن أنه من الجيد أن ينتفض شعب ضد الظلم والفقر والبطالة..

لم تسمح لي مخيلتي بالتفكير بالحرب أبدا.. كل الذي فكرت فيه هو أننا سوف نتحرر من قوقعة الفساد وكفى..

بدأت تخرج مظاهرات ضخمة في مدينتي.. تتردد الكلمات على مسامعنا جميعا..

الشعب يريد إسقاط النظام.. حرية.. حرية..

أكثر عبارات سمعتها في تلك الأيام..

كانت الشرطة تتصدى للمظاهرات بالقوة والعنف.. نسمع أصوات الرصاص من كل صوب.. نجلس في المنازل قلقين على أنفسنا وعلى الناس في الخارج..

صار الموت يحوم في الأرجاء.. يستشهد الشباب وتكبر أعداد المتظاهرين يوما بعد يوم طلبا للحرية..

ما الذي يجري في وطني وكيف أصبحنا هكذا!

كيف صارت أرواحنا رخيصة! منذ متى الأطفال تحمل أسلحة في الشوارع!

متى كان القتل والإجرام حلالا؟ لأجل من كل هذا؟

لأجل الحكم والسلطة! أم لأجل سحق الروح من بلدي!

قلت لأبي :

- أريد أن أكمل تعليمي.. ما ذنبي إن قامت الثورة.. دعني أسكن في حلب هذه الفترة فالمدينة هادئة ولا حرب فيها..

- يا ابنتي حياتك أهم من التعليم، أنا لن أسمح لك بالسفر في هذه الأوضاع ولن أضحي بك..

- لكن يا أبي مستقبلي هنا سوف يضيع.. ما الفائدة من جلوسي في المنزل..

كان في رفضه خوف كبير من أن يمسني أي مكروه..

حزنت كثيرا لهذا القرار القسري، لكن أبي كان محقا فيه.. حيث أن الخطر كان يزداد والأحداث تصبح أعنف وأقوى.. فبعد أسبوع تماما حدثت فاجعة كبرى.. كانت صدمة قوية آلمتني كثيرا.. (انفجار حافلة النقل في طريقها لحلب استشهد فيها الكثير من الطلاب من بينهم ثلاث زملاء كانوا معي بقسم العلوم)..

كانت الأيام تمضي ببطء شديد والضجر والحنين يقرع قلبي في كل حين، كان وداعا بلا وداع..

ما ذنبي أن أحرم من العلم؟؟ من الشهادة الجامعية التي كانت حلما يندثر تحت ركام الحرب بلا شفقة..

إلا أنه رغم الألم والمأساة كنا نحاول العيش والفرح بقدر ما نستطيع.. فالحياة تستمر بكل أحوالها..

***

تلك الليلة التي أسعدت قلوبنا جميعا..ليلة زفاف ابن عمي سامر على فتاة يحبها منذ خمسة أعوام، رغم أن الزواج تم بدون احتفال...

بعد ثلاثة شهور من زواجه اختفى سامر.. بحثوا عنه كثيرا إلا أنهم لم يجدوا له أثر.. بعد بحث مطول وصلنا خبر أنه معتقل في سجون صيدنايا..

كانت زوجته حامل آنذاك.. ومنذ ذلك اليوم لا أحد يعلم شيئا عن سامر.. انهارت زوجته من الحزن.. لكن الله أعطاها صبرا وأملا فأنجبت طفلة جميلة.. طفلة لا تعرف أباها.. لا تعرف إن كان لديها أب في هذه الدنيا أم أنه أصبح في عداد الأموات..

في تلك الفترة كانت مدينتنا تضج بأصوات الرصاص لا سيما في ظهر كل جمعة.. كان المتظاهرون يخرجون من كل جامع.. ثم يجتمعون جميعهم ليهتفوا بالحرية..

أما أنا كنت معارضة محايدة.. معارضة لكل ما يجري للقتل للتدمير للظلم بجميع أشكاله، محايدة فلست مع هؤلاء ولا مع هؤلاء لأن الطرفين لم يكونوا أسوياء..

كنت أبحث عن الحق لكنني لم أجد سوى الظلم واللعنة التي حلت في موطني..

حزنت على جميع القتلى.. من جميع الأطراف.. أطفال نساء شباب شيوخ.. جنود وثوار..

الموت كان يحزنني والظلم يعصف مثل الريح ويبيد الأمل والفرح من بلادي..

لعنة الحرب كادت تمزق أرواحنا..

نحمد الله الذي أعطانا القوة والصبر على أوجاع لايمكن أن تحكى..

***

أيمكن أن يكون الشتاء باردا لتلك الدرجة؟

أم أن هذي الحرب البادرة قد أضافت إليه من صقيعها، ومن عارها وإلحادها حتى بدا لنا عدوا بلا رحمة..

اختال في مشيته داخل أرواحنا المتجمدة بكل إجحاف وطغيان..

أيمكن للياسمين أن يزهر ثانية وقد ذبل أصحابه، واستوطن الغرباء في موطنه!

الطريق لبيت جدتي اليوم يفرشه بياض الثلج..

ربما أرسل الله لبلادي ثلوجا غزيرة، كي تغطي دماء الشهداء وتبرد قلوب أمهاتهم التي ذابت حرقة ..

ربما أرسله كي يخبئ بنقائه تلك المباني التي هدمت فوق رؤوس أصحابها، فصارت كل ذكرى فيها رمادا داكنا..

رغم كل ما جرى، لا يمكن ألا أستشعر روعة وصفاء الثلج في مدينتي الصغيرة..

بهدوء طرقت الباب :

- أهلا وسهلا سارة حبيبة قلبي..
- جدتي اشتقت إليك كثيرا، أعطني قبلة (قبلت خديها ويدها كعادتي)..
- ادخلي بسرعة فالبرد شديد، أأغلق الباب أم خلفك أحد؟
- أتيت لوحدي..

أغلقت الباب وتبعتني إلى الغرفة.

- أيعقل ذلك يا ابنتي! كيف تأتين وحدك بهذه الظروف الصعبة؟
- لقد أوصلني أخي للباب ثم عاد!
- حسنا، خير ما فعل..

دخلت وجلست قرب المدفأة وبدأت أتحسس الدفء عن قرب..

- يا له من برد قارس، كدت أتجمد..

- الحمدلله ما زال لدي القليل من المازوت كي أشعل المدفئة، لكن ماذا لو نفد كله!

- لا تقلقي يا جدتي فقد أصبح الناس يستخدمون الحطب بدل المازوت نظرا لقلة وجوده وغلاء سعره..

- الحطب مضر بالصحة يا ابنتي، وقد يؤذي الجهاز التنفسي كثيرا، فرائحة دخانه قوية لا أحتملها، لاسيما أن مدافئنا ليست مهيئة لحرق الحطب..

- أعلم ذلك، لكن هذا أقصى ما يمكن توفيره..

- ليفرجها الله علينا وليحسن خاتمتنا..

- آمين. جدتي كعادتك تشاهدين مسلسل الفصول الأربعة! أما مللت منه؟

- لا أمل منه إطلاقا، يذكرني بلمة العائلة والأيام الجميلة التي مضت قبل وفاة جدك رحمه الله..

- آه من تلك الأيام، ليتها تعود ثانية..

- أتذكرين زهور الياسمين التي اعتدت أن أقطفها لك من حي القصور؟

- وكيف لي أن أنساها! منذ طفولتك غمرت قلبي ويداي بالياسمين!

- حين كنت صغيرة، كنت أستعين بأمي كي تقطفها لي ثم أهديها لك، كنت أشعر أن الياسمين يشعر بالفرح حين ينام على كفيك.. لكن اليوم حين مررت بذاك الحي كانت شجيرات الياسمين حزينة ذابلة، يبدو أنها بكت كثيرا على الفوضى والخراب الذي عاث حولها! أظن أنها لن تزهر ثانية!

- لا يا ابنتي الياسمين قوي، يحب موطنه ولا يهجره. سوف يزهر ويزين الأحياء قريبا..

- أتمنى ذلك حقا! أريد أن أعد كوبا من القهوة، أتشربين معي؟

- أجل، قهوتك لذيذة لا تقاوم، لكن المياه في الصنبور مقطوعة منذ يومين. يوجد وعاء أزرق بالمطبخ مملوء بالماء استعمليه!

- انقطاع المياه مصيبة بالنسبة لي يا جدتي. أصبحت أستحم كل أسبوع مرة، بالأحرى كلما وجدت فرصة لذلك.. الاستحمام بالكأس والطنجرة وعلى ضوء الشمعة يذكرني بالعصر الحجري، لقد عدنا بالزمن قرونا للوراء..

- لا يزال الأمل موجودا يا سارة، ومازال إيماننا بالله كبيرا. ربما علينا أن نتعلم من دروس الحياة أكثر، ولعل صبرنا على كل ما يجري يكفر عن ذنوبنا ويدخلنا الجنة بإذن الله..

جلسنا نحتسي القهوة معا ونحكي أحاديثا وقصصا عن الحياة التي ضاعت تفاصيلها بلعنة الحرب وجشاعتها. قبل أن نكمل قهوتنا انقطع التيار الكهربائي، فبربرت جدتي :

- لعنهم الله، ما دخل الحرب بالكهرباء والماء والغاز؟ لم تبق سوى أنفاسنا كي يقطعوها! كل يوم على هذا الحال، إلى متى؟

- أعاننا الله يا جدتي، أين الشموع؟

- في غرفتي، سأحضرها الآن..

- لا بأس أنا سوف أحضرها، لدي ضوء قوي بهاتفي..

سرت نحو غرفتها، فتحت الباب. رائحة الغرفة مميزة وجميلة. نظرت للمرآة كان على أطرافها صور لكل أفراد العائلة، تتوسطها صورة جدي رحمه الله..

تحت المرآة خزانة مزينة بالعطور والبخور والساعات والتحف القديمة، ومسبحة جدي الفضية اللامعة..

كلما دخلت غرفتها، أشعر كأنني في متحف منسق متكامل من الجمال والعراقة..

أخذت الشمعة ثم أشعلتها.جلست بقرب جدتي وقلت لها :

– ما رأيك الآن أن تحكي لي قصصا جميلة وقديمة، لا أريد الحديث عن هذه الأوضاع فقد سئمتها.

– اسمعي إذا قصة ميلادك :

منذ زمن ليس ببعيد، كان الخريف في منتصفه، والبرد مازال ببدايته. استيقظت من النوم في الثانية بعد منتصف الليل.

صليت قيام الليل ودعوت لوالدتك كثيرا، فقد كانت على وشك الولادة..

رن الهاتف فإذ بوالدك يخبرني أن أجمل طفلة بالكون قد ولدت. كانت السماء تمطر سيولا من الخيرات، كأنها تحتفل بمولدك..

لقد جئت في موسم الزيتون، في تلك السنة قد شهدت الأرض أكبر محصول لها..

بعد أن قطف جدك الزيتون من الحقل، وزع الكثير منه للفقراء من شدة فرحته بقدومك لعائلتنا..

– رحمك الله يا جدي كم كنت حنونا وطيبا..

***

لقد وهبني الله جدة لا مثيل لها..

أشعر بالفخر حين أنطق حروف اسمها..

هي الحنان الأعظم والرفق والطيبة اللامتناهية..

هي الأم قبل الأم..

قد ورثت عنها عذوبة الروح، وسماحة القلب..

لكنني لم أرث ابتسامتها، جمالها وطيب رائحتها..

لقد فاقتني بهم حتى اكتنزت بالحسن، فكانت كالملاك بل وأنقى..

فلا هي تكبر في نظري ولا تجاعيد يديها تزيد..

إنما الحب بين أحضانها يولد من جديد..

محظوظ من يمتلك جدة بنكهة زهر الياسمين..

ومسكين ذاك الذي يفقدها.

***

حل الظلام وطلع القمر من جديد. مازلنا نروي قصصنا على ضوء الشمعة..

ومازال الليل بحضورها مبتسما، تؤنسه ضحكاتها ونغشاتها كأنها طفلة..

أرواح النساء لا تكبر مهما طالت بها السنين..

وقلوبهن رقيقة،ومليئة بالحب يرويها الحنين..

- أتعلمين يا جدتي! لطالما تمنيت النوم في حضرتك منذ كنت طفلة،ومازلت أتمناه كل ليلة!

أحب وجودك بقربي، أحب الليل معك..

- إذا ابق هذه الليلة عندي، لأنك سوف تشتاقين للنوم هنا!

- لم سوف أشتاق؟ ألست هنا!

- سوف أسافر بعد يومين لبيت خالك في الشام، فتواجدي هنا وحدي يتعبني، أصوات الرصاص والتفجيرات تكاد تقضي علي..

- وتتركيني وحيدة؟

- لست وحيدة يا ابنتي، الله معك في كل مكان!

- كان الله بعوني على فراقك يا جدتي..

****

كان جيش النظام يدخل المدن التي يسكنها الثوار مدينة تلو الأخرى.. إلى أن جاء دور إدلب..

حين علمنا أن الجيش سيدخل.. قرر معظم شبابنا الرحيل وهكذا بدأت الهجرة..

أخي الوحيد مجد شاب بالعشرين من عمره أخذ القليل من حوائجه وانطلق إلى تركيا البلد الأقرب لحدود مدينتي.. كان وداعه مؤلما لكنه ضروريا..

بعد يومين من رحيله استيقظنا على أصوات مرعبة بشكل هيستيري.. أذكر ليلتها أنني نهضت من نومي بطريقة مرعبة للغاية.. دقات قلبي تسارعت بشدة..

صرخت باكية أمي.. يا أمي..

جاءت أمي مسرعة لغرفتي ضمتني فبكيت بصوت عال..

أصوات الانفجارات تكاد تثقب الآذان..

ودوي الرصاص أقوى من صوت الرعد..

كانت الأرض تهتز وتصرخ كأنما زلزال عنيف أصابها..

في تلك الليلة ظننت أنني أتنفس آخر أنفاسي.. كنت أستعد للموت حقا، لكن الله كتب لنا أن نخرج منها سالمين..

ولسوء الحظ انقطعت الكهرباء والاتصالات بشكل كامل.. جلسنا خائفين لا ندري ما الذي يحدث في الخارج..

لم يكن الخوف من الموت.. بل كان من الفقدان..

طلع الفجر والأصوات مازالت من قوية إلى أقوى..

أكثر ما كان يرعبني صوت الدبابة التي وقفت أمام بيتنا تقصف شرقا وغربا..

وصوت الطائرة العسكرية تقصف أيضا بين الحين والآخر..

ثلاثة أيام قضيناها في المنزل، لم نكن نجرؤ أن نفتح الباب أبدا..

في اليوم الرابع هدأت الأصوات وبدأت تعود الحياة في المدينة تدريجيا..

خرج أبي ليطمئن على الناس إلا أنه تلقى خبر استشهاد عمي وزوجته بمنزلهم أثر القصف العشوائي..

كان عدد الشهداء كبيرا والجثث تحت الركام.. الواقع مأساوي جدا.. عدد كبير من الأبنية وقعت فوق رؤوس أصحابها..

والدبابات تسير في الشوارع كأنها دراجات..

الحرب بشعة.. مرهقة وكريهة للغاية..

كبر الحزن والخوف في نفوسنا..

وبعد عدة أيام.. قرع باب بيتنا بقوة وعنف..

ما إن فتحنا الباب حتى دخل جنود جيش النظام وصرخوا بوجوهنا كأننا مجرمون..

أخذوا أبي معهم بطريقة مؤلمة لا إنسانية ولا رحمة فيها.. بقينا أنا وأمي نرتجف من الخوف..

لم نكن نقوى على الصراخ..

تظاهرنا بالقوة مع أننا كنا في أضعف حالاتنا..

لم يكتفوا باعتقال أبي..

بل دخلوا المنزل وكسروا كل ما فيه بحجة أن أبي إرهابي وهم يبحثون عن سلاحه..

عددهم بالعشرات.. لا أعرف بالضبط فقد كنت بحالة يرثى لها آنذاك..

وقفت بجوار أمي ننتظر مصيرنا المجهول..

كسروا المنزل فوق رؤوسنا لم يتركوا بابا ولا شباكا ولا كأسا... حتى ملابسنا والطعام الذي كان في الثلاجة.. كل شيء صار على الأرض..

صورنا ذكرياتنا.. الكتب والأوراق والأقلام، لم يسلم منهم شيء..

كل هذا كان عاديا مقارنة بالكلام البذيء والكفر واللعن الذي كانوا يصارخوه بوجوهنا..

ساعة كاملة وهم يسرحون في المنزل الذي عاث خرابا..

ساعة ليتني أحذفها من قاموس حياتي لما فيها من ظلم وألم وذل لم أكن أعرفه قط..

تلك الساعة كانت كفيلة بقلب حياتنا من حال إلى حال أ لاسيما أنهم قبل أن يخرجوا هددونا بحرق منزلنا بما فيه إن لم نتركه ونرحل عنه على الفور..

ما إن رحلوا حتى صرخت بكل جوارحي، بكيت وانهارت قواي .. في حين كانت أمي تكابر على نفسها وتواسيني..

رحل أبي معهم.. أين أنت يا أبي؟ أحتاجك بقربي أرجوك عد إلينا سالما!!

تركنا المنزل وذهبنا لبيت خالي، تلك كانت أول هجرة لنا ومن هنا بدأت الرحلة..اغتربنا في مدينتنا، تشردنا في بلادنا.. وما زال الله يعطينا الصبر والقوة للاستمرار بالحياة.

***

خالي أب لثلاثة أطفال كان حنونا وطيبا معنا.. زوجته أيضا طيبة وتحبنا.. لم نشعر معهم أننا في بيت غريب.. نعد الطعام معا ونأكل معا وننام في غرفة االأطفال، لكن الهم يكاد لا يفارقنا.. الشوق لأبي وأخي.. الحنين للماضي والحياة الطبيعية ما قبل الحرب..

كانت الكهرباء تنقطع كثيرا وتأتي أحيانا..

الاتصالات انقطعت فترة طويلة جدا..

والماء يأتي أحيانا وينقطع أغلب الأوقات..

أصوات الرصاص والانفجارات أصبحت أقل من ذي قبل..

بدأ الناس يعودون للأسواق والأعمال..ونحن نخرج للضرورات..رغم الخطر والانفجارات اليومية لكن الحياة يجب أن تستمر..

بعد عدة شهور عادت الاتصالات فرحت كثيرا وأجريت محادثات شوق طويلة مع أصدقائي..

لاسيما لونا صديقتي الغالية كنت أحاول أن أفسر لها ما جرى لكن لا أستطيع البوح بالتفاصيل فالاتصالات مراقبة والكلام ممنوع..

هكذا هي سياسة بلدنا! ممنوع.. ممنوع.. ممنوع ..

حتى انفجر الناس واندلعت الحرب حطمت أركان الوطن..

أصبحت الحياة شبه عادية..الناس تخرج وتمشي وكأن شيئا لم يحدث..

طبعا الرصاص والتفجيرات الفجائية أصبحت أشياء سخيفة اعتدنا عليها، بل أصبحت جزءا مهما من حياتنا.. بحيث لا يمكن أن يمر يوم بدونها..

أما عن أعداد الضحايا فكل يوم بازدياد.. أيضا الموضوع عادي جدا..

يأتينا الخبر جاركم فلان مات نحزن لحظتها.. رحمه الله، وننسى الأمر. أجل الموت أصبح في حياتنا ضرورة من ضروریاتها..

ربما يظننا الناس خارج البلد أننا بذلك أصبحنا بدون إحساس.. أيضا الكثيرون يسألون متعجبين من أمرنا.. كيف نكمل حياتنا بالحرب؟ كيف نصبر على كل تلك المعاناة!

ما هذه القوة التي نمتلكها بحيث ينفجر اللغم قرب رؤوسنا فنحمد الله على سلامتنا ونكمل الطريق..

أستطيع القول بأن الحرب علمتنا الكثير.. علمتنا أن نبقى أقوياء مهما أضعفتنا الظروف، علمتنا الصبر على كل حال، وأن الموت قريب جدا وهو آت إلينا جميعا لامحالة، وأن الإيمان بأقدار الله هي الطريق الوحيد للعبور في هذه الدنيا بسلام.

***

إلى متى هذا الحال؟ لقد سئمت الشعور بالملل والإحباط من كل شيء حولي..

أعتقد أنه لا فائدة من الجلوس في المنزل وانتظار القدر..

فكرت مليا حتى توصلت لنتيجة أظن أنها سوف تخرجني من هذا الحال..

أنا طالبة جامعية لماذا لا أفعل شيئا ينفعني وينفع أهلي!

- أمي!

- نعم!
- أريد أن أعمل..
- ماذا ستعملين؟
- أي شيء مفيد يا أمي لقد مللت هذه الحياة..
- حسنا يا ابنتي لكني أخاف عليك من المخاطر في الخارج..
- أمي لقد تعودنا هذا الوضع، لا نعلم متى سينتهي الأمر.. أليس من الممكن أن نعيش عمرنا كله ونحن هكذا!!.. الحرب متعبة لكن علينا أن نعيش ونتناسى.. ألا يكفي أنني منعت من التعليم والشهادة!!!

تنهدت أمي بحزن وقالت : كما تريدين سوف أساعدك بإيجاد عمل يناسبك..

قبلتها من رأسها وقلت لها :

كنت أعرف أنك ستوافقين أيتها الحنونة..

بعد بضعة أيام حدثتني أمي قائلة :

- سارة ما رأيك بالعمل في مجال تعليم الأطفال؟
- أتمنى ذلك يا أمي فأنا أحب الأطفال وأحب هذه المهنة أيضا..
- حسنا لقد حصلت على عمل لدى صديقتي في معهد تعليم خاص..

- بهذه السرعة أيعقل ذلك!!! شكرا جزيلا يا أماه لقد سررت كثيرا بهذا الخبر..

***

في بداية الأمر ذهبت وشاهدت المعهد والأطفال قابلت المديرة تحدثنا فكان العمل الذي حصلت عليه كالتالي :

تعليم أطفال الصف الخامس الابتدائي جميع المواد بحيث أتابع ما يأخذونه في مدرستهم من كتابة وظائف وحفظ وقراءة وحساب والخ..

كان عددهم ستة طلاب فقط..

الدوام ثلاث ساعات في اليوم.. والراتب ٢٠٠٠ ليرة سورية في الشهر فقط..

كان مبلغا رمزيا لكنني قبلت بذلك..

بدأت أذهب كل يوم بعد الظهر حين يرجع الأطفال من المدرسة وأعود عند غروب الشمس تقريبا..

كان التعليم بالنسبة لي تجربة ممتعة ليست صعبة وليست سهلة..

إنما تحتاج الصبر والرقي في التعامل مع أطفال الجيل الذي شاهد ويلات الحرب..

لم يكن الأطفال مثلما كانوا سابقا قبل الأحداث..

قد تغير حالهم تغيرت أساليب التعامل معهم..

تغيرت نفسياتهم كبرت عقولهم ونضجوا قبل أوانهم..

الحرب تغير الصغار قبل الكبار..

كان الأطفال أذكياء وأقوياء كنت أرى بأعينهم الأمل والمستقبل المشرق..

من بينهم طفلة اسمها ألما كانت هذه البنت كثيرة الشرود والنسيان..

سألتها عن وضعها وحال أسرتها.. قالت لي :

- أبي استشهد في الحرب يا آنسة.. وأنا أعلم أنه في الجنة وسأذهب إليه قريبا فقد اشتقت له كثيرا..

يا إلهي، كيف لقلوب الأطفال الصغيرة أن تتحمل معاناة حرب باردة بشعة كهذه..

كم يحمل قلب هذه الطفلة من الألم والفقدان والهم..

نحن شعب متعب منهك لكننا صابرون مؤمنون..

رغم الخطر والتفجير والرصاص والدمار مصرون أن نكمل تعليم أطفالنا..

رغم الموت والألم والخوف نعمل ونكدح دون ملل

الجيل القادم سيثبت للعالم أننا شعب قوي، كلما أنهكته الحياة ازداد قوة وصبرا واستقلالا..

كلما أتعبته القيود ازداد إيمانا وإصرارا وحرية ..

***

لم يكن الطريق للمعهد طويلا، ربع ساعة فقط من المنزل الذي أقنطه إلى العمل..

قبل الوصول للمعهد ببضعة مترات يوجد حاجز لجيش النظام يقف فيه عدد من الشباب..

يرتدون البدلات العسكرية يطلقون الرصاص كما يحلو لهم يفتشون الناس والسيارات..

إني أسير منذ أسبوعين في ذلك الطريق ذهابا وإيابا..

لكنني لم ألتفت مرة لأرى وجوه هؤلاء الجنود..

كنت أتقصد أن أمر بسرعة كي لا يتكلم أحد معي..

بينما اليوم أوقفني أحدهم..

- قفي أيتها السيدة..
- نعم ماذا تريد؟؟!
- هويتك لو سمحت..
- تفضل..
- اسمك جميل يا سارة.. وأنت أيضا..

- إذا سمحت أنا مستعجلة..

- حسنا أنا آسف على الإزعاج.. تفضلي هويتك، إلى اللقاء..

أخذت هويتي ومشيت مسرعة.. في الحقيقة كنت خائفة قليلا.. لكن الشاب لم يبد لي عنيفا..

في اليوم التالي شعرت بقليل من المرض والزكام.. أخذت يومي إجازة عن المعهد..

حين عدت للعمل كنت أحمل بين ذراعي كتابا وعدة أوراق..

أمام ذلك الحاجز أوقفني نفس الجندي..

- مرحبا يا آنسة..

- نعم..

- لقد وقعت منك هذه الورقة..

- شكرا..

أخذت الورقة وتوجهت للمعهد.. كنت أعلم أنها حيلة وأن الورقة ليست من كتابي..

فتحتها حين وصلت.. كان مكتوب فيها :

(لا تغيبي عن عيني يوما يا سارة.. أخشى أن لا أراك ثانية.. إني أخاف الفقدان..

رامي..)

لا أعلم لم أثرت بي كلماته المحبطة..

لكني تساءلت ماذا يريد جندي مني.. أصلا هو لا يعرفني.. وأنا لا أعرف عنه سوى اسمه..

أعتقد أن الجنود شباب فوضويون يدمرون ويقتلون بلا شفقة..

بغض النظر عن كل شيء من المستحيل أن أفكر بشاب مثل رامي..

ولست في مزاج مناسب للعلاقات الفاشلة..

علاقة مثل هذه مصيرها الفشل لامحالة، من المؤكد أن هؤلاء الشباب يريدون فتاة يتسلون بها ريثما يعودون لأمهاتهم..

هذا ما فكرت به في ذلك الوقت..

لم ألق له بالا ولا اهتماما.. كنت أذهب وأعود دون أن أنظر باتجاه الحاجز ولا حتى نظرة عابرة..

***

مضت الأيام وعاد يوم مولدي مرة أخرى.. اليوم أصبح عمري 21 عاما.. لكن دون احتفال، دون شمعة، ودون هدايا..

كعادتي ذهبت للعمل..

أنهيت الدرس وخرجت للشارع..

بعد أن قطعت الحاجز بقليل سمعت دوي انفجار قوي جدا بنفس الحي الذي كنت فيه، أوقعني من الرعب أرضا.. بدأ قلبي يرتجف وتتسارع ضرباته.. الدخان كان يتصاعد.. الناس بدأت تتراكض.. وأنا ما زلت على الأرض لاحظت دماء بيدي أثر الوقعة لم أكن أشعر بوجودها، لكنني أشعر بالدوار فقط وأسمع صفيرا عميقا يكاد يثقب أذني.. جسدي لا يقوى على الحركة..

- تعالي هنا يا سارة..

سمعت هذا الصوت لا أدري من أين أتى لكنني سمعته..

فجأة أحدهم أمسكني وحاول أن يوقفني.. نظرت إليه..إنه رامي..

- ساعديني يا سارة هيا امشي معي..

كان ثقلا غريبا في جسدي لا أستطيع المشي..في ذات اللحظة سمعت صوت انفجار آخر..شعرت بزلزلة الأرض من تحتي كأنها تصرخ رعبا.. ثم لم أعد أشعر بشيء أبدا..

- سارة.. سارة.. هيا استيقظي..

فتحت عيوني، رأيته يجلس بقربي.. صرخت :

- ابتعد عني.. ماذا تريد مني! أين أنا؟

- الحمدلله على سلامتك يا سارة.. لا تخافي كنت أوقظك فقط.. خفت عليك كثيرا.. خشيت ألا أراك بعد اليوم (ابتسم بخجل).

نظرت في الأرجاء وجدت نفسي أجلس على درج في مبنى غريب، ظننت أنه مهجور فلا يوجد أحد هنا إلا أنا ورامي وأصوات الرصاص التي كانت تدوي بشكل جنوني..

نهضت ببطء واستعدت توازني.. أمسكت هاتفي لأتصل بأمي فقال لي..

- الاتصالات مقطوعة لقد حاولت قبلك..

- حسنا سأذهب لأطمئن عن أهلي..

- هل أنت مجنونة!!.. تخرجين بهذه المعركة الحامية؟.. اذهبي إن استطعت!!.. الرصاص يكاد يثقب الحديد في الأرجاء..

جلست أبكي.. اقترب مني حاول أن يطبطب علي..

- أبعد يدك عني أنت تخيفني..

- أخيفك!!! سامحك الله.. كما تريدين أعتذر بشدة..

وقف بالزاوية أخرج علبة الدخان وأشعل السيجارة.. أخذ أول سحبة وزفرها بصوت عال وهو يناظر الأرض..

صوت الرصاص يقترب ويعلو.. أشعر أنني سأموت هنا مع هذا الجندي الغريب..

جلست متعبة منهكة لا قدرة لي على الكلام ولا على الوقوف حتى..

تذكرت كل شيء حصل معنا.. كل شدة مررنا بها.. أبي المعتقل.. أخي الهارب.. أمي التي لا أعرف إن كانت بخير أم لا..

بيتي الذي صار مثل الكوخ المنسي.. جامعتي التي تركتها.. أصدقائي الذين فقدتهم دون أن أودعهم..

شعرت بحرقة كبيرة في قلبي.. شعرت بحقد وكراهية لهذا الشاب المسلح الذي معي..

صرخت والدمع في عيني :

- أنتم السبب.. أنتم من أحرقتم قلبي ودمرتم البلاد وحرمتم الناس من الحياة.. أنت يا من تقتل الناس والأطفال تريد أن تساعدني!!!.. هل لديك قلب ليشعر بي؟ لو كان عندك قلب ما كنت جنديا تحمل هذا السلاح وتقف هنا. اخرج واقتل هيا!!.. ماذا تفعل هنا!!!

- سارة اهدئي لو كنت كما تقولين لما جلست معك عشرون دقيقة وأنت غائبة عن الوعي أحاول إيقاظك.. لو كنت قاتلا لخرجت وقاتلت..

صمت قليلا.. نظر في عيني.. تنهد بقوة ثم تابع قائلا:

- لم أتمن يوما أن أكون هنا!!! لكنه قدري والأمر ليس بيدي..أنا لست بهذه الوحشية التي تصفينني بها.. أنا مثلك أحترق وأتمنى أن أعود لمنزلي اليوم قبل غد.. فقد أنهيت خدمتي العسكرية منذ عدة شهور وكنت أستعد للرحيل، كنت أستعد للقاء أمي، كنت أنتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر، لكنهم أرغموني على البقاء.. أتظنين أني لا أحترق شوقا لعائلتي!!

نظرت إليه وأجبته بغضب :

- إذا كنت بريئا كما تقول، فمن يقتل الناس خارجا؟ من يطلق الرصاص بهذه الوحشية!! من شرد الناس من بيوتها ودمر المشافي وأحرق المدارس؟ قل لي من؟؟؟؟

تبسم بسخرية وقال لي :

- أنا لا أقوى على قتل نملة يا سارة.. فكيف تقررين أنني قاتل!!! أنا عبد مأمور فرضت علي الحرب فرضا، ما الذي أستطيع فعله!!

أجبته بأسلوبه ذاته :

- هذا ليس عذرا، كان عليك أن تنشق من الجيش وتهرب إن كنت مسالما كما تدعي..

زفر زفرة أخرى وهو يدخن سيجارته وأكمل :

- أهرب؟؟ ليت الأمر كان بهذه السهولة.. إننا محاصرون من جميع الجهات وأرواحنا لا تكلف عند الدولة سوى رصاصة.. هل تظنين أنني ذا أهمية عندهم؟ أنا مجرد جندي، مجرد رقم من أرقامهم الكثيرة. أهلي في حماة وأنا هنا لا أعرف مصيري.. تأتي القذيفة تنتشلني وأصدقائي تقطعنا أشلاء لا يدري بنا أحد لأننا مجرد أرقام لا أكثر..

رمى السيجارة على الأرض، دعسها بغضب وإحباط.. كان رجلا ضعيفا جدا، خائفا، تائها كالسجين لا يدري كيف يتحرر من تلك الزنزانة اللعينة.. نظرت في عينيه رأيت نظرة كبرياء وضعف بآن واحد..

هل ظلمتك يا رامي؟!.. هل قسوت عليك؟؟.. أم الحرب ظلمتنا نحن الأثنين معا!

صمتنا بضع دقائق.. مازال صوت الرصاص لا يهدأ، لا يكل ولا يمل.. ما هذه الحرب المجنونة!! تقتل كل شيء بلا رحمة! حتى البراءة بداخلنا طعنت كثيرا حتى استنفذت قواها واستسلمت.

أحسست لوهلة أني قسوت عليك.. أنت محق ومن يكترث لموتك أو لموتي..

لقد تهنا بين الركام.. الخطر يحيط بنا من كل جانب..

بعد عدة دقائق سألته :

– إذا أنت من حماة!!! لقد توقعت ذلك من لهجتك..

نظر إلي وكأنه كان ينتظر سؤالي ليهدأ..

- صحيح أنا حموي.. كنت أخدم عسكريتي في دمشق.. بعد أن أنهيت الخدمة، تم نقلي إلى درعا ثم إلى حمص واليوم في إدلب..

من حاجز إلى حاجز ولست أدري على أي حاجز سوف تكون نهايتي..

- بعد عمر طويل.. ما زال الأمل بالله كبيرا.. ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا.. أقصد إلى هذا المبنى.. كيف وجدتني؟

- في الحقيقة كانت صدفة لا أكثر.. مررت بالشارع وشاهدتك تسقطين فأدخلتك المبنى الذي وجدته بقربي..

- يا لها من صدفة!! حسنا، أتعرف أين وقع الانفجار؟

- تقصدين انفجارين.. لا أعلم، ولكن أظن على حاجزنا فقد كان الصوت قريبا جدا والحمدلله أننا خرجنا سالمين..

- أتقصد الحاجز بقرب المعهد!! يا ويلتي.. الأطفال!

- أظن أنهم أنهوا يومهم الدراسي وعادوا إلى منازلهم، لكنني قلق على أصدقائي في الحاجز..

- أنا قلقة على أهلي كثيرا.. إلى متى سأبقى هنا أريد أن أرحل..

- لن ترحلي قبل أن يهدأ الحال بالخارج أتفهمين؟

- لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك..

- كم أنت عنيدة.. وجميلة أيضا..

ابتسمت بخجل ولم أتكلم أبدا..

حل الظلام ولم يكن معنا سوى ضوء الهاتف المحمول.

كنت أنظر إليه، أرى بريق عينيه.. أشعر بالدفء قليلا.. فالطقس كان باردا جدا..

إلى أي مكان يأخذني ذاك الشاب الأسمر، ذو الملامح الشرقية، والعينان العسليتان الجذابتان!

ساعتان من الوقت كنا معا في مبنى شبه مهجور.. الخطر والرصاص يحوم حولنا ويحيط بنا من كل جانب..

كان صمتنا يتكلم..

عيوننا تزداد بريقا..

خوفنا يزيد تارة وينقص تارة أخرى..

بقينا على هذا الحال حتى توقف صوت الرصاص وعم الهدوء أرجاء المدينة..

هممت بالرحيل وقلت له..

- أعتذر عن قسوتي.. وأشكرك لمساعدتي والبقاء بجانبي ..
- إذا سترحلين؟ تتركيني وحيدا؟
- يجب أن أرحل ما زلت قلقة على أمي..

- اذا سألحق بك وأوصلك المنزل..
- شكرا لا داعي لذلك..
- الظلام يعم المدينة خارجا.. أخاف عليك..

سارة..

- نعم..
- عودي ولا تتركيني وحيدا..أرجوك عديني بذلك..
- سأحاول ذلك، إلى اللقاء..

خرجت من المبنى مشيت بسرعة حتى وصلت البيت..

فتح خالي الباب..

- سارة أين كنت يا ابنتي خفنا عليك كثيرا.. أمك تبكي منذ وقوع الانفجار ادخلي بردي قلبها..

دخلت وجدتها تبكي قبلت يديها حضنتها وبكيت معها..

قلت لها لا تحزني أنا هنا يا أمي أنا بخير..

كان يومي غير عادي.. مليء بالأحداث والمشاعر المختلطة..

لكن يبدو أن شعورا جديدا دخل قلبي لم يكن في الحسبان..

يبدو أن هذا الشاب استثنائي جدا.. رامي..

من أين جئت وكيف وصلت إلى قلبي!

أتمنى أن تكون بخير..

أتمنى أن تعود وترى أهلك من جديد..

وأن تراني أنا أيضا كما وعدتك..

لم أكن أدري يوما أن الحب من الممكن أن يولد في الظلمات..

لكنني اليوم آمنت أن الحب أقوى من القذائف والصواريخ.. أقوى من الحرب ذاتها..

***

تفاجئنا الأيام بحب غير متوقع.. غير منتظر..

فنعيش رغم جراحنا أملا جديدا..

ينبض فينا القلب كأننا خلقنا من جديد..

مضى يومان على تلك الحادثة كنت فيهما لا أخرج من المنزل أبدا..

الاتصالات عادت من جديد، وصلتني رسالتين.. إحداهما أسعدتني كثيرا والأخرى أحزنتني كثيرا..

كانت الأولى من رقم مجهول كتب فيها :

(في الحقيقة أنا كذبت عليك.. لم أكن هناك صدفة، إنما كنت أتبعك كل يوم كي أطمئن أنك وصلت منزلك بسلام.. أعتذر عن التطفل فقد أخذت رقمك عندما كنت نائمة.. رامي)

ابتسمت بهدوء واتصلت به فورا.. فكان حديثنا :

- مرحبا رامي.. كيف حالك؟؟
- الحمدلله الآن أصبحت بخير، أما قبل قليل كنت محبطا حزينا جدا..

- سلامتك.. ما الذي حصل!!

- أصدقائي الذين كانوا على الحاجز.. اثنان منهم أصبحوا أشلاء والباقي في المشفى يعانون من إصابات معظمها خطيرة..

- لاحول ولا قوة الا بالله.. فليتلطف الله بهم.. عظم الله أجركم..

- شكر الله سعيكم.. أترين كم كنت محظوظا في ذلك اليوم!!

- الحمدلله أنك بخير.. سأرسل لك إيميلي ونتحدث كتابة أفضل..

- بانتظارك يا حبيبتي..

احمرت وجنتي خجلا وأنهيت المكالمة..

قرأت الرسالة الثانية وكانت من مديرة المعهد تقول فيها :

(تم إغلاق المعهد يا سارة، يمكنك أن تأتي لتحصلي على أتعابك في منزلي.. فقد استشهد طفلين من المعهد وهم في طريق العودة للمنزل، منهم طالبتك – ألما – كانت معها أمها فليرحمهم الله)

ألما كانت تريد زيارة والدها الشهيد فاستجاب الله دعوتها البريئة..

أطفال كالورود يرحلون لرحمة الله ليصبحوا طيورا في الجنة..

ما أظلم هذه الحرب لا تعرف كبيرا ولا صغيرا، الكل أخذ نصيبه من الألم..

تبقى قلوبنا ضعيفة أمام تلك الفواجع..فاجعة تلو أخرى، أحزان تلو أحزان، وما نزال صابرون،لأن لنا رب رحيم..

***

حل المساء فكلمت رامي. حدثني عن عائلته وروى لي قصصا كثيرة صارت معه أثناء الخدمة..

كان يضحكني كثيرا، خفيف الظل كلامه يبهج القلب.

رغم كل الظروف التي عشناها..كل لحظة تكلمنا بها..كل نظرة سرقناها من الزمن خلسة، كانت تعيد إحياء الروح فينا، تأخذنا إلى عالم كل ما فيه هدوء وراحة وطمأنينة..

مضت أسابيع لم أره فيها.. كنت لا أخرج من المنزل إلا للضرورة مع أمي وخالي..

***

تلك الليلة كانت لا تنسى..

قال لي وهو يحادثني :

- انظري من النافذة..

- أي نافذة!!!

- لا أعلم أظنها نافذة المطبخ..

- رامي.. الساعة الثانية بعد منتصف الليل تريدني أن أذهب للمطبخ ماذا لو رآني خالي!!

- تشربين الماء ما المشكلة في الأمر!!

- حسنا انتظر لحظة..

كان الجو باردا جدا، نظرت فرأيته واقفا متكئا على الحائط المقابل للنافذة، يرتدي البدلة العسكرية الرقيقة. أخرج علبة السجائر وأشعل السيجارة ثم نظر إلي، أرسل لي قبلة بيده، فابتسمت خجلا واتصلت به :

- ماذا تفعل أيها المجنون!!
- اشتقت إليك كثيرا..
- رامي كفاك جنونا ارحل وارتدي معطفا سميكا وإلا ستمرض..
- أنا مريض بك..
- إن لم ترحل الآن سأغلق النافذة..
- لن أرحل ولن تغلقيها فأنا مشتاق يا سيدتي..

كلماته عبثت بمشاعري فأجبرتني على الخضوع لحبه والاستسلام له..

- ماذا تريد بهذا الليل؟

- هل تتزوجين بي؟؟؟
- ماذاااا!!!
- ردي على سؤالي أرجوك.. هل تتزوجين بي؟؟
- لكن كيف وأنت...
- نهرب من كل هذه الدنيا، أنت وافقي ولا تفكري بالأمر.. ردي الآن!!
- لا أعلم دعني أفكر بالأمر!
- أحبيبيك سااااارة.. (بصوت عال)

أغلقت النافذة وكلمته :

- مجنون أنت تريد أن تفضحني..
- بل أريد أن أحبك وأعيش معك العمر كله..

مجنون أنا بعينيك الساحرتين..

تكلمنا وتكلمنا وطال الليل وطلع الفجر وما زلنا نبني أحلامنا بالكلام..

كنا كالأطفال ببراءتنا.. كالمجانين بضحكاتنا..

في كل ليلة بنفس الوقت يقف رامي تحت نافذة المطبخ..

في كل ليلة أنظر في عينيه من بعيد فأزداد تعلقا وعشقا بهما..

ماذا فعلت بي يا رامي!!

كيف استطعت أن ترمي سهامك في منتصف قلبي..

تلك السهام التي تميتني وتحييني في آن واحد..

***

بعد عدة أسابيع كنت أكلمه في الليل وكالعادة في المطبخ..

بالصدفة نهضت أمي وسمعتني..

- من هذا الذي تكلمينه في الليل يا سارة!! أهذه تربيتي لك؟

- أمي رجاء اهدئي سأحكي لك كل شيء..

جلست وكلمتها عنه. حاولت أن أقنعها بصدق غايته..

سمعتني للنهاية لكن ردة فعلها كانت شديدة بالرفض لهذه العلاقة..

- جندي يا سارة!!! ألم تجدي غير جندي؟؟؟

- أمي أرجوك افهميني، رامي ليس جنديا سيئا إنه يتمنى الهروب لكن الأمر ليس بيده..

- حتى لو كان ملاكا! أتعرفين ما هو مستقبلكما؟؟؟ علاقتكما سسمحتومة بالفشل..

- أمي رامي سوف يخطبني بشكل رسمي، نحن لا نتسلى..

- متى؟؟؟؟ حين تنتهي الحرب! وإن لم تنته ماذا ستفعلين؟؟ فكري بعقلك لا بقلبك يا ابنتي، لا تظلمي نفسك ولا تظلميه.

- لكنني لا أريد غيره يا أمي.. إما رامي أو سأبقى بنتا لن أتزوج أبدا..

نظرت إلي بغضب وقالت:

- لست صغيرة حتى أضربك لذا سأكتفي بهذا الكلام. اتركيه حالا! هل تفهمين؟

جلست أبكي، فكلامها كان مؤثرا لكنه صحيحا. أمي لم تكن مخطئة، بل أنا التي أخطأت!

أحبه أشتاق إليه.. لقد تعلقت به كثيرا..

يا إلهي كم الحب يعذب قلوب البشر..

العاشق يتألم كثيرا ولا يشعر به أحد سوى من أحبه بصدق..

هذا الغرام يحتل كياننا، يدغدغ مشاعرنا، ويلعب بها..

الحب إدمان.. والمدمن مريض يحتاج علاجا فعالا..

لكن معظم المدمنين بعد العلاج والشفاء التام، يعودون لإدمانهم..

هكذا هو العاشق.. مهما حاول الابتعاد والنسيان، سوف يعود مشتاقا ملوعا مكسورا..

كيف لي أن أنساك يا رامي!

وأنت تعصف مثل الريح في كياني ..

كيف أترك قلبا حضن قلبي بدفء وسلام..

لن أتخلى عنك يا حبيبي.. سوف أنتظر اليوم الذي تصبح فيه حلالي..

تصبح لي.. وملكي..

وعدتك ولن أنقض هذا الوعد..

***

كان الهواء يعصف في تلك الليلة الباردة.. عيناي تبكي فراقا محتمل..القمر هلالا هزيلا حزينا على حالنا..لماذا حركت المواجع في القلب يا أمي؟ قلبي المتيم لم يعد يحتمل أشواقا وعذابا..صغيرة أنا على كل هذا الهم يا أمي.. ألا تكفي جراح الوطن كلها علمت في روحي! كأنها طعنات سيف تمزقني دون أن يشعر أحد بي..

أغلقت هاتفي تلك الليلة لكنني لم أنم أبدا..

في اليوم التالي.. أرسلت له :

أمي عرفت قصتنا وهي الآن غاضبة مني كثيرا، أنا أشعر بالذنب أشعر بالإحباط..

كلمني وقال لا تقلقي سأكلم أمي ليصبح الأمر جديا..

بعد قليل اتصلت أمه بأمي.. عرفتها عن نفسها و تعرفت عليها ثم طلبت يدي منها بشكل رسمي..

أمي لم تعترض ولم توافق أيضا قالت لها نريد وقتا كي نفكر بالأمر ونريد أن نراكم لنتعرف عليكم بشكل شخصي..

كانت سعادتي لا توصف لأن رامي أوفى بوعده وطلبني للزواج..

تحدثت مع أمي وكانت راضية عني، دعت لي وتمنت لنا السعادة الأبدية..

حاولت أم رامي أن تأتي لتزورنا لكن الأمر كان صعبا حقا.. الطريق مقطوع والسفر محال..

تأجل موضوع الخطبة، لكن أصبحت علاقتنا أكثر جدية من قبل..

كان يأتي رامي كل يوم يضع وردة جورية عند الباب.

أما أنا فأصبحت وظيفتي وشغلي الشاغل جمع ورود رامي والاحتفاظ بهم..

مازال يقف كل ليلة في الثانية تحت النافذة.. هذا التوقيت استثنائي بالنسبة لي، أنتظره طول اليوم..

كانت أمه طيبة جدا فقد أصبحت أحادثها يوميا نتعرف ونخطط معا للمستقبل..

***

حين عدت اليوم من منزل خالتي مررت بالقرب من الحاجز الذي كان فيه. كنت أريد أن أنظر إليه فقط، لكنه عندما رآني دخل إلى حجرته واتصل بي :

- ما الذي تفعليه هنا؟

- جئت لأراك، اشتقت لك..
- ألا تعرفين أن الحاجز هنا كله شباب؟
- أعلم!
- وأنهم ينتظرون مرور الفتيات حتى يسترقوا النظرات الخبيثة! (بغضب)
- ما بك؟ وهل تظن أن هذا أول حاجز عسكري أمر به؟
- سارة.. عودي للمنزل حالا! ولا تعودي لهذه المنطقة إطلاقا...
- هل هي غيرة أم خوف علي؟
- الاثنان معا..
- حسنا سأعود.. أنا في طريقي للمنزل هل ارتحت؟
- أجل..
- لم أكن أعلم أنك تغار هكذا!
- أنت لا تعرفينني جيدا، غيرتي عليك قاتلة، لا أريد أن ينظر إليك أحد غيري..
- لكن المدينة مليئة بالحواجز والعساكر والشباب..
- يمكنك البقاء في المنزل إذا!
- تريدني أن أسجن نفسي داخل الجدران كي لا تغار؟

- لا أبدا، لكن حين تضطرين للخروج من المنزل اتصلي بي وسوف أوصلك إلى حيث تريدين وأعيدك للمنزل..
- أنت مجنون حقا..
- أجل أنا مجنون وأغار عليك، هل لديك مانع؟
- يا لك من رجل شرقي بحت..
- وأفتخر بشرقيتي هذه..
- ها قد وصلت أكلمك لاحقا..
- أعلم أنك وصلت، ها أنا أتبعك..

نظرت خلفي رأيته مبتسما فابتسمت له وراح قلبي يخفق فرحا..

مشاعر

أعترف أني حين أحببتك أذنبت!!

وأنني كنت مراوغة، حين أبديت انزعاجي من محاولاتك الأولى..

فروحي عطشى للمزيد والمزيد..

كثير من الحب يجعلها أكثر ظمئا وثمولا..

يجعلها سكرى متلهفة مهزوزة القوى..

فلماذا أنت؟ ولماذا أنا؟؟؟

ولم اجتمعت قلوبنا ها هنا؟

ألم أكن لك عاشقة مثل ما أحببت!

ألم أجعلك في مملكة قلبي سيد الرجال!

وبين براكين الشوق نارا بقلبك أشعلت!

لا تنظر لي هكذا فقد أسرتني..

حطمتني..

لامست تلك المشاعر..

حتى حدود الهوى داخل قلعتي الحصينة دمرت..

قل لي بحق الحب :

هل أنا المذنبة حقا!

أم أنت الذي أذنبت!!

فيوم نظرت إلي، انقلب البرد في أضلعي دفئا..

ويوم لقائك إحدى وعشرين شمعة أطفأت..

يرن هاتفي في منتصف الليل فأستيقظ ملهوفة لأني أعلم أنك المتصل، وصلتني منك رسالة، فتحتها مرتبكة :

– هل تسمعين صوت المطر؟

رددت ومازلت نصف نائمة..

– أسمع همس صوتك مع زخات المطر!

– إذا تعالي فقد أغرقني الشوق مع سيول المطر..

– إلى أين؟ أتريدني أن أخرج حقا!

– أجل تعالي بسرعة، ها أنا ذا واقف تحت نافذتك، أشعر بالبرد الشديد..

نهضت وفتحت النافذة.. رائحة المطر مع عطرك الذي أيقظ كل حواسي، كرائحة الياسمين الشامي الذي يملأ حارات مدينتي فيضفي عليها الجمال المعتق..

البرد قارس، المطر غزير وصوت الرعد يرعبني..

نظرت فلم أراك، كان سواد الليل مظلما..

فركت يداي بقوة كي أخفف البرد عنهما. لمع البرق فلمحتك واقفا فاتحا يداك، والمطر يصفع جسدك بلا شفقة..

– أشعر بالبرد فضميني..

لم تكن رسالة، بل كانت صدى صوتك، قرعت قلبي كلماتك فزادت دقاته، احمرت خدودي خجلا وابتسمت عشقا فشعرت بالدفء..

أغلقت النافذة التي كانت شاهدة على كلمات غرامنا وعدت للسرير..

كتبت لك :

– يا لك من عاشق مجنون!

لم تفعل هذا بنفسك؟ ألا تخاف من المرض؟ إن كنت لا تهتم فأنا أخاف عليك، أخاف على صحتك، على سلامة روحك أكثر من أي شيء..

عد إلى مضجعك ونم قبل أن تطلع الشمس وتشتهي النوم! أحبك رامي..

أرسل لي :

– سوف أتصل بك الآن ردي واسمعيني فقط دون أن تتكلمي..

تنهدت وخفت أن يسمعني أحد لكنني لا أحب أن أرفض لك طلب..

رن الهاتف فكان صوتك رقيقا عذبا حين أمطرتني شعرا..

– اسمعي حبيبتي هذي القصيدة من أجمل ما كتب نزار قباني.. أحببت أن أقولها لك بصوتي :

أخاف أن تمطر الدنيا، ولست معي

فمنذ رحت.. وعندي عقدة المطر

كان الشتاء يغطيني بمعطفه

فلا أفكر في برد ولا ضجر

وكانت الريح تعوي خلف نافذتي

فتهمسين: تمسك ها هنا شعري

والآن أجلس.. والأمطار تجلدني

على ذراعي، على وجهي، على ظهري

فمن يدافع عني.. يا مسافرة

مثل اليمامة، بين العين والبصر

وكيف أمحوك من أوراق ذاكرتي

وأنت في القلب مثل النقش في الحجر

أنا أحبك يا من تسكنين دمي

إن كنت في الصين، أو كنت في القمر

ففيك شيء من المجهول أدخله

وفيك شيء من التاريخ والقدر..

كان الحنين في صوتك كأنه معزوفة، لا يسمعها أحد غيري..

تلك البحة تسللت إلى أعماق فؤادي المسلوب مني..

والروح تاهت في الفضاء تدور تدور حولك، كأنها الشمس وكأنك المجرة..

***

ذات ليلة قلت لك..

- ما بك يا حبيبي لست على طبيعتك!!
- هل رأيت قمر الليلة؟

نظرت فرأيته بدرا كاملا يسحر الأنظار بجماله..

- إنه جميل حقا!
- إن افترقنا يوما، انظري للقمر حين يصبح بدرا كما اليوم، سوف أرسل لك عبر نوره رسائل حب وأشواق تملأ الأرض بما فيها..
- أنت تعلم أني لا أحب سيرة الفراق!
- سارتي حبيبة قلبي، إن غبت عنك هل تتركيني؟
- لم هذا السؤال الآن؟ طبعا لن أتخلى عنك وأنت تعرف هذا جيدا.. ما الأمر يا رامي !
- غدا صباحا سنذهب لقرية في نواحي إدلب..
- لماذا؟

- هناك معارك طاحنة وسوف نرحل لنقاتل..

- يا إلهي! تريد أن تقاتل!!

- لست أنا من أريد.. هم يريدون.. ماذا أفعل برأيك؟

- اخترع أي حجة قل لهم أنك مريض جدا لكن أرجوك لا ترحل..

- هه مريض.. هذه الحيلة قديمة ولو كنت أموت سيأخذونني.. جربت معهم كل شيء ولا شيء ينفع.. ادع لي أن أعود بخير يا حبيبتي.. أشعر أني لن أعود سالما..

- كفاك رامي أرجوك أنا لا أحتمل الفراق والوداع.. لا ترحل معهم افعل أي شيء لكن لا ترحل..

- انتبهي لنفسك جيدا يا سارة.. قلبي ضعيف بلحظات الفراق..

أخفض رأسه ولم يعد يرد علي..

- رامي.. أنت تبكي!!! رامي رااااامي..

ناديته كثيرا لكنه رحل ولم يرد..

كان الجو باردا وماطرا.. اختلطت قطرات المطر بدموع عينيه، فبكت السماء بغزارة مر فراقنا..

في اليوم التالي كتب لي رسالة :

(حبيبتي سارة سامحيني إن لم أعد سالما.. أردت أن أعترف لك أن المبنى المهجور كان أجمل مكان عرفته في حياتي وأنك عندما كنت نائمة، كنت كالملاك تأملتك كثيرا، خفت عليك كثيرا.. أتعرفين يا سارة.. منذ رأيتك خشيت ألا أراك ثانية لأني أخاف الفقدان..أحبك)

***

رحل رامي ورحل قلبي معه.. بعد تلك الرسالة توقف هاتفه عن استقبال الرسائل، لأن المناطق بعد الخروج من إدلب، الاتصالات فيها مقطوعة تماما..

صرت أكلم أمه وأخته كل يوم تقريبا.. في حين أصبحت أخته دانا صديقة لي..

دانا تبلغ من العمر ثلاثين عاما.. أم لطفلتين.. تسكن مع والدتها في المنزل لأن زوجها أحد جنود الجيش الحر في حماة..

كانت تحدثني عن شوقها لزوجها وللحياة الماضية عندما كانا معا في بيت واحد..إنها طيبة القلب حنونة كأخيها.. كانت لي خير مؤنسة بغيابه..

مشاعر

عيناك..

حين أدمعت أبكتني ليالي.. مزقت أوصالي..

حطمتني دمرتني.. عذبت قلبي، فحضنتك في خيالي..

عيناك..

حين تبكي أتوجع..

وحين قلبك يدمع أتلوع، وأغرق في بحور هواك..

يا من أثرت بحزنك إعصاري..

دخلت جنة عمري، وأشعلت ناري..

حطمت قلعة قلبي، وأعتقتني من حصاري..

كانت أحاسيسي سماء صيف ساكنة..

جعلتها ريح وبرد، فتساقطت أمطاري..

عيناك.. ما سر عيناك!

تأخذني لحرب وليتها تعود بانتصاري..

تقتلني ولا أعرف أسباب انتحاري..

عيناك دفئي وبردي وبيوت أسراري..

عيناك دائي ودوائي، ودفاتر أشعاري..

بدأنا نسمع أصوات معارك حامية شديدة على أطراف إدلب.. يقولون أن القصف على السجن المركزي هذا ما سمعناه..

صرنا نصلي وندعو الله أن يلطف بنا الأقدار..

تلك الليلة استيقظت باكية أثر حلم راودني..

رأيت أبي خارجا من السجن. سلمت عليه فسحب يده بسرعة وصرخ بألم، كان ظهره يسيل دما..

يا له من حلم مزعج! اللهم اجعله خيرا.. اشتقت لك يا أبي..

بعد يومين جاءنا اتصال من رقم مجهول.. كان أبي المتصل.. تكلم مع أمي وطلب منها مغادرة إدلب فورا باتجاه معرة مصرين..

لم نكن ندري ما الأمر! كيف خرج من السجن؟ لم السفر المفاجئ؟

لكن سعادتنا بخروجه كانت لا توصف..

لملمت أشيائي.. القليل من ملابسي ورسائل رامي..

أخذنا حقيبتين صغيرتين فقط.. ودعنا خالي وزوجته والأولاد..

ودعنا إدلب الحبيبة دون أن ندري أنه الوداع الأخير..

لازلت أذكر ذاك الهواء العليل كيف كان يداعب وجهي ويهيج بنسماته الحنين في قلبي.. كم آلمني فراقك يا مدينتي الجميلة..

ودعت حياتي وأيامي الماضية، لكني لم أودع أصدقائي.. لونا صديقتي الروحية اشتقت لها، فاتصلت بها وكلمتها :

- لونا.. كيف حالك حبيبتي! اشتقت لك.. ما هي أخبار حلب والجامعة؟

- وأنا اشتقت لك أكثر يا سارة، كنت وحيدة من دونك.. الأخبار هنا لا تسر أبدا أظن أني سأعود لمنزلي في حمص قريبا!

- ما الذي يجري!!

- لا أستطيع التكلم عبر الهاتف لكن التخريب في كل مكان، قذائف وصواريخ وطائرات حربية تحوم في السماء..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ليحميكم الله جميعا..

أنا مسافرة الآن إلى معرة مصرين كنت أتمنى أن أودعك، فإني لا أعلم سأعود أم لا!

- لا تحزني يا سارة، فأنا أيضا لن أبقى هنا طويلا، المنطقة التي أسكنها محاصرة، أصبحت أخاف الخروج من المنزل باعتباري من الأقليات كما تعرفين..

- الأقليات! وما المشكلة بكونك تنتمين للديانة المسيحية؟ أهو ذنب أم جريمة؟

***

أتعلمين يا صديقة!

أشعر بالخجل الشديد من ممارساتهم الغبية ضد الأقليات (كما يدعونهم)..

رغم أني لا أنتمي لهم، ولا لدينهم المزعوم..

لم يعلمني الإسلام أن أعاديكم، لم يعلمني أن أنظر لكم نظرة فوقية قط!

أتذكرين يا صديقة! حين كنا نعيش كأسرة واحدة دون عنصرية، دون طائفية، ودون رجعية!

أتذكرين كم احتفلنا بأعيادكم، واحتفلتم بأعيادنا.. صلينا لأجلكم، وصليتم لأجلنا..

أتساءل كل يوم ما الذي يريده هؤلاء منا؟

ألسنا كلنا أبناء آدم وحواء!

أليس الوطن للجميع؟ والدين اعتقاد وحرية؟

ما الذي جرى لعقول البعض في الأونة الأخيرة؟

لم انقلب الناس بهذا الشكل الطائفي المجنون؟

متى سنتقبل فكرة اختلاف الطوائف والأديان كما كنا من قبل؟؟؟

ألا يكفي ما وصلنا إليه!

ألم يكفنا الموت والتشرد؟؟؟

ماذا يريدون بعد!!!

كل هذه الحروب على وجه الأرض لأجل مصالح سياسية بحتة..

كل سياسي يريد أن يثبت ذاته على حساب شعوب مستضعفة مستعبدة..

وحين يفيق الشعب من غفلته تتم إبادته، وتعذيبه بأبشع أساليب العنف..

شباب في المعتقلات يموتون تعذيبا وقهرا ومرضا..

نساء وأطفال يموتون تحت الأنقاض لا أحد يشعر باختناقهم..

أمهات الشهداء والمعتقلين والجنود كل ليلة تبكي قبل النوم وفي الحلم وحين تفيق..

عائلات تهاجر من منزل لمنزل.. من بلد لبلد.. وتموت شوقا لوطن..

أي حال وصلنا إليه!!!

يبقى السؤال الذي يشغل بالنا جميعا..

متى ستنتهي هذه الحرب اللعينة؟ متى!!!!!!

***

راودتني تلك الأفكار وأنا في الطريق..

في زحمة المعارك التي دارت داخل رأسي، أوقفنا حاجز للجيش النظامي..

فتش جميع الهويات..

وقف الجندي يحاور صديقه ثم عاد إلينا..

ضرب بيده باب الحافلة..

نظر بتعجرف وصاح اسمين :

- أحمد وكرم أبو العز انزلوا من الحافلة على الفور..

بدأت أمهم تبكي وتتوسل لعل أحد يفعل شيئا، أو لعل قلب ذاك الجندي يحن عليها ويعيدهم لأحضانها!

- أرجوك لا تأخذهم أولادي أبرياء لم يفعلوا شيئا، أترجاك أن تعدهم لي..

- اسكتي!! نحن لا نأخذ إلا المذنبين.. إن كان أولادك أبرياء سيعودون..

أخذت تدعو الله وتتلو آيات قرآنية..

صرنا ندعوا معها. وقفت الحافلة خمس دقائق، انتظرنا رجوع الشابين لأمهم.. لكن ذلك لم يحدث..

عاد الجندي وألقى الأمر على السائق :

- هيا انطلق..

- وأولادي!!! لن أكمل الطريق إلا وهم معي.. انتظر أيها السائق سأنزل وأبقى معهم..

وقف السائق حائرا ونهضت المرأة لتنزل.. لكن العسكري صرخ بوجهها..

- لن تنزلي ولن يعود الأولاد ارحلي من هنا أتفهمين؟

راحت تبكي وتترجى، حتى صرخ بالسائق : انطلق هيا ألا تسمع!

انطلق السائق والمرأة تقول :

- يا ويلي فقدت أولادي! رحلوا أحبابي! يا إلهي صبرني!

شباب بعمر الورد يرحلون بغمضة عين أمام أمهاتهم.. يتم اعتقالهم والله أعلم سيعودون لحضن أمهاتهم أم سوف يختفون إلى الأبد..

***

مررنا بمنطقة كان الرصاص فيها يلعب لعبا..

أخفضنا رؤوسنا خوفا من رصاصة طائشة..

قطعنا المنطقة بسلام..

ثم وقفنا بحاجز آخر، كان حاجزا للجيش الحر..

ذات الأمر أخذوا هوياتنا، تفقدوها، ثم أعادوها لنا..

قطعنا ذاك الحاجز ووصلنا بسلام..

كان الطريق سابقا يأخذ ربع ساعة من الزمن..

لكنه أخذ معنا ساعة ونصف..

نعم .. لقد كان طريقا طويلا مكدسا بالمخاطر والحواجز..

وصلنا معرة مصرين.. كانت البلدة مليئة برجال الجيش الحر..

توجهنا لبيت صديق أبي حيث كان اللقاء به مبهجا للقلب..

رأيته من بعيد كان آتيا باتجاهنا شكله متغير تماما، جسده نحيل جدا، يعرج على رجله اليمنى ويوجد شاش ملفوف بين كتفه ويده أيضا.. ركضت إليه، حضنته أنا وأمي. كانت فرحتنا برؤيته لا توصف..

- الحمدلله على سلامتك يا أبي.. ما الذي حصل!!! ولماذا تعرج ويدك هكذا؟؟؟؟

- لا شيء يا ابنتي الأمر بسيط لا تقلقي.. هيا إلى الداخل..

دخلنا وسلمنا على أهل البيت، ثم جلسنا معه. كان متعبا ومرهقا جدا..

- حدثنا يا أبي كيف حالك وما الذي جرى؟ كيف خرجت من السجن!!!

قالت لي أمي :

- دعيه يرتاح يا سارة، سيتكلم لوحده حين يريد ذلك..

- معك حق يا أمي..

رد أبي :

- لا تقلقي يا ابنتي سأحكي لكم ما الذي حصل.. والله إني حي الآن بمعجزة.. منذ عدة شهور وأنا في السجن المركزي.. كنت حينها أعتقد أنني انتهيت ولن أعود وأراكم مرة أخرى.. فقدت الأمل بالرجوع، لكنني كنت أدعو الله كثيرا وأصلي كي ألقاكم.. كنت جالسا مع الكثير من الرجال في السجن.. فجأة سمعنا صوت انفجار قوي كالرعد هز الأرض من تحت أقدامنا هزا.. بدأت أصوات الرصاص تعلو في الأرجاء، والانفجار تلو الانفجار.. صرنا نقول كلنا الله أكبر الله أكبر.. ما الذي يجري!! خفنا وفي نفس الوقت صار عندنا أمل بالخروج.. جلسنا نذكر الله كثيرا.. يومين والوضع ذاته قصف ورصاص وطائرات فوق السجن، ونحن لانعرف ما الذي يجري خارجا.. في صباح اليوم الثالث.. أقمنا صلاة الفجر جماعة وجلسنا.. تعبت كثيرا فغفوت للحظات.. بعدها سمعت صوتا قويا جدا و شعرت بشيء ثقيل يكاد يحطم جسدي.. استيقظت فوجدت الحائط والسرير فوقي.. صرخت من الألم : ساعدوني ساعدوني..

كان الانفجار قويا، أوقع حائط السجن فوق رؤوسنا.. نظرت حولي لم أجد سوى الأشلاء والركام..المنظرا مرعبا.. كنت أصيح ولا أحد يسمعني.. نطقت الشهادة وانتظرت الموت ورحت أستغفر الله لعله يغفر لي..

بعد ما يقارب الخمس ساعات سمعت أصواتا تعلو وتدنو مني.. كانوا رجال الجيش الحر يصرخون.. الله أكبر الله أكبر..

صرت أصيح لعل أحدهم يسمعني.. فجأة دخل أحدهم المكان.. ناديته : يا أخي تعال أنقذني أنا أموت هنا!

رآني وصاح لأصدقائه.. جاؤوا وأبعدوا الحجارة من فوقي.. أزاحوا السرير وحملوني.. كنت أنزف وأتألم كثيرا.. قالوا لي هيا اهرب من هنا بسرعة وتركوني..

رحت أزحف بين الرصاص والقذائف حتى وصلت مكانا كان فيه رجال الجيش الحر.. قلت لهم لا أستطيع السير أنقذوني.. حملوني إلى السيارة وانطلقوا بي إلى هنا.. أسعفوني فكان كتفي مخلوع وفي قدمي شظية من شظايا البراميل المتفجرة.. والحمدلله أنا الآن بخير كما تروني..

- يا إلهي كل هذا عانيته يا أبت.. الحمدلله أنك عدت لنا..

بكت أمي وتأثرت بقصته كثيرا.. قالت له :

- أنت لا تعلم كم فقدناك ودعونا الله أن تعود لنا سالما، حمدا لله على سلامتك..

***

نمنا ليلتها في بيت صديقه كان أصحاب البيت كرماء ولطفاء..

في اليوم التالي كلمنا أخي مجد من تركيا كان سعيدا جدا بخروج أبي من السجن.. كلمه وقال له :

– إني أنتظركم هنا يا أبي لا تتأخروا..

– غدا إن شاء الله نكون عندك في تركيا يا مجد..

أغلق الهاتف.. فرحت أمي كثيرا أنها ستزور ابنها..

أما أنا فلم أفرح أبدا..

رامي كيف سأتركه وأرحل؟؟؟

قلت لهم..

-لكنني أريد البقاء هنا لا أريد أن أغترب عن بلدي..

قال لي أبي :

-يا ابنتي لن نتأخر.. سنزور أخاك شهرا واحدا ونعود إن شاء الله..

-أواثق يا أبي أننا سنعود؟

-أجل يا سارة سنعود حتما..

لكنني لست مطمئنة.. إني أخاف من الغربة.. أخاف من الفقدان..

كيف سأترك وطني.. وحبيبي.. وأصدقائي..

كيف أتخلى عن روحي بتلك البساطة!!!

سوريتي أنت الروح..

أنت الوطن والدفء والأمان..

نعم.. الأمان رغم كل حروب الدنيا التي اجتمعت فيك ..

كنت مجبرة على الرحيل..

فأبي هارب من السجن.. إما أن يعود للسجن أو أن نهرب معه..

***

انطلقنا في اليوم التالي إلى معبر باب الهوى..

كنت في كل الأوقات أحاول الاتصال برامي.. إلا أن خطه دائما خارج نطاق التغطية..

أرسلت له رسالة كي يقرأها حين يتصل خطه بالشبكة :

(رامي حبيبي.. ها قد مرت عشرة أيام دون أن تكلمني، أتمنى أن تكون بخير. اضطررت للسفر مع أهلي إلى تركيا.. لا أدري كيف سأتحمل البعد عنك، الظروف كانت أقوى من إرادتي.. أخشى ألا أراك ثانية.. أحبك)

أرسلت الرسالة والدمعة بعيني.. كنت أشعر أنه الوداع الأخير..

لم يكن الطريق طويلا..

وصلنا المعبر، كان الازدحام شديدا.. المسافرون كثر.. انتظرنا دورنا ساعات..

وحين وصلنا ختمنا على جوازاتنا..

(دخول إلى تركيا)

أكملنا طريقنا..

استقبلنا مجد بالأحضان.. كان الشوق له كبيرا..

أخذنا للمنزل الذي يقنطه.. منزلا شبابيا مشتركا، يحتوي ثلاث غرف وفي كل غرفة أربعة شبان..

الشباب كانوا سوريين.. أفرغوا لنا غرفة كي ننام بها مؤقتا..

وفي اليوم التالي خرج أبي وأخي يبحثون عن بيت للإيجار..

لكن البحث طال أسبوعين، فالإيجارات باهظة الثمن..

وجدوا أخيرا بيتا قديما صغيرا بغرفتين.. نقلنا أغراضنا وسكنا فيه.. كانت الأرض من خشب.. الأبواب خشبها قديم جدا.. لكنه مناسب للراتب الذي يتقاضاه أخي شهريا..

حيث أنه كان يعمل في معمل أقمشة مدة ١٢ ساعة كل يوم براتب زهيد نسبيا..

العمل كان صعبا.. إيجاد بيت مناسب صعب أيضا.. الغربة كانت الشيء الأصعب على الإطلاق..

أخي الذي يكبرني بعامين كان في سورية طالب حقوق.. لم يكن يعمل من قبل إطلاقا..

لكنه الآن أمام مسؤولية نفسه وأهله..

أخي اليوم عامل في معمل أقمشة كي يكفي نفسه بنفسه ماديا..

ما هذه الهمة العالية بالشباب السوري!!

يعملون بجد لساعات وساعات دون كلل أو ملل، كي لا يحتاجوا المساعدة من أحد..

جيلنا عظيم كادح، ليس كما يدعون.. نحن نستحق حياة أفضل! نستحق الاحترام والتقدير على ما عايشناه من ظروف الحرب المؤلمة!

***

يوجد في المنزل شبكة إنترنت حاولت الاتصال برامي دون جدوى..

كلمت أخته دانا، كانت قلقة عليه مثلي..

- أيعقل هذا يا دانا؟؟ ثلاثة أسابيع لم يتصل بي!! إلى متى سيبقى هاتفه مغلقا أنا خائفة عليه حقا..

- لا أعلم يا سارة عسى أن يكون خيرا.. اصبري ولا تقلقي، سيكلمنا قريبا إن شاء الله..

- أتمنى ذلك، لقد اشتقت له كثيرا!

أجهشت بالبكاء ولم أعد أتكلم..

- سارة!! أين ذهبت يا حبيبتي؟ الو.. هل أنت تبكين؟

- لا أستطيع الكلام أكثر سوف أغلق الهاتف.. أعتذر منك يا دانا..

أغلقت ورحت أبكي حتى شعرت بالتعب الشديد والإرهاق فغفوت..

زارني طيفك للمرة الأولى في حلمي، لم تكن ببدلتك العسكرية كما كنت أراك دائما، بل كنت ترتدي قميصا ناصع البياض.. لحيتك مرتبة وشعرك أيضا، بدا لي شكلك كعريس بليلة زفافه.. لا أدري أين كنا فقد كنت شاردة بوجهك فقط..راحت عيناك ترمقني بتلك النظرات الخاطفة التي اعتدتها.. ناديتني من بعيد – سارة – اقتربت منك بسرعة فحضنتني بقوة.. أيمكن أن يكون الحضن دافئا لهذه الدرجة؟ أيمكن أن يكون إحساسه عاليا كما أشعر به الآن؟ هل ما زلت على وجه الأرض أم أنني في الجنة!

- سارة قومي جاءنا ضيوف..

صوتها أيقظني من إحساس لا يوصف..

- دعيني أكمل نومي يا أمي، لم فعلت هذا بي؟
- وما الذي فعلته بك؟
- لا شيء! فقط كنت بالجنة، وعدت للأرض..

أحيانا نتمنى أن نعيش في جوف الحلم دون عودة..

يا ترى هل سأعيش في أحضانك يوما؟؟ أم أنه سيبقى حلما وأمنية تراودني في كل حين..

رامي أنت الحب الذي لا ينتهي..

ستبقى في القلب مهما طالت بي الغربة ومهما بعدت المسافات بيننا..

***

نهضت واستقبلت الضيوف.. كانت الجارة وابنتها..

جلسنا نتعارف بالإشارات فلا هم يفهمون العربية ولا نحن نفهم التركية..

كانوا لطفاء جدا.. سألونا إن كنا نحتاج مساعدة أو شيئا للبيت..

بدت المرأة بالخمسينات من عمرها وابنتها شابة في منتصف العشرين..

أسماؤهم جنات وخديجة إنها أسماء عربية..

بدأنا نكتشف تقارب الكلمات والثقافات بين البلدين..

الأتراك يشبهوننا إلى حد كبير بالعادات والتقاليد..

بدأت الزيارات بيننا كأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد..

بعد فترة وجيزة صرنا نفهم كثيرا عليهم ونتكلم القليل.. لم تكن لغتهم صعبة بل كانت سلسة وتحتوي الكثير من الكلمات العربية أو القريبة منها..

جربوا طعامنا فأحبوه وهم أيضا كانوا يسكبون لنا من طعامهم ويعجبنا..

أذكر حين سردنا لهم قصتنا والأسباب التي غربتنا عن بلدنا، جلسوا يبكون ويدعون لأهلنا في سورية..

يا لطيبة قلوبهم وحسن خلقهم..

بعد أن مضى شهرين على وجودنا في تركيا، تحدثت الجارة إلى أمي وسألتها عن رأيها في موضوع خطبتي من ابنها..

سألتني أمي عن رأيي قلت لها :

- أمي لا أريد أن أتزوج الآن..
- يا ابنتي إن كنت تنتظرين رامي فانسيه وفكري بمستقبلك.. هذا الشاب جاهز للزواج، لديه منزل وسيارة وعمله ممتاز..
- أمي أرجوك انسي الموضوع لن أتزوج حاليا..
- سارة حبيبتي فكري جيدا لا تتسرعي، تعرفي عليه ثم قرري..
- حسنا سوف أفكر..

لكنني في الحقيقة لم أكن أفكر بالأمر إطلاقا.. كان كل ما يشغل بالي (رامي)..

في اليوم التالي تلقيت رسالة كتب فيها :

(سارة حبيبتي اشتقت لك كثيرا.. أنا آسف لانقطاعي عنك كل تلك المدة، لكن ظروفي كانت صعبة جدا لم أستطع التواصل مع أحد.. كيف حالك؟؟ شبكة

الاتصال عندي ضعيفة جدا وقد تنقطع في أي وقت لكنني بخير.. أرجو أن تكوني بخير أيضا)

حين قرأتها عاد قلبي ينبض بقوة وفرح.. دبت الحياة في الروح من جديد..

اتصلت به فورا :

- ألو.. سارة..

- حبيبي رامي أين أنت؟؟؟

كيف حالك!!! لا أصدق أنني سمعت صوتك.. كدت أموت خوفا عليك..

- صغيرتي اشتقت لك كثيرا..

- وأنا أكثر صدقني.. الحمدلله أنك بخير.. ليتك تعلم كيف يرقص قلبي الآن فرحا..

- على فكرة أنا لم أعد عسكريا..

- ماذاااا؟؟؟ كيف!!!

- لقد صرت جنديا في صفوف الجيش الحر..

- يا إلهي كيف حدث هذا؟؟؟

- كل تلك الفترة كنت معتقلا من قبل الجيش الحر.. قبضوا علي وتم اعتقالي، أخذوا مني هاتفي، أحالوني للمحكمة الشرعية..

ثم بعد المحاكمة، صدر القرار ببقائي هنا والقتال إلى صفوفهم..

- هل كنت معتقلا كل هذه المدة؟ حسبي الله ونعم الوكيل.. الحمدلله على سلامتك.. هل عذبوك أو آذوك؟

- في الحقيقة لا.. لكنني كنت قلقا جدا عليك وعلى أهلي ..

- إذا لم تقرأ رسالتي!!

- أي رسالة؟؟؟ لم يصلني شيء فقد غيرت رقمي..

- أنا الآن في تركيا يا رامي..

- تركيا؟ غير معقول!!! كيف تسافرين بهذه السرعة لا أصدق!!

- الظروف أجبرتني.. أبي خرج من السجن هاربا.. لم يكن الأمر بيدي..

- حبيبتي كنت أعيش على أمل رؤياك.. كيف تتركينني بهذه البساطة؟ أيعني هذا أن لقاءنا صار حلما؟

- لا أعلم يا رامي لكني أريد أن أعود إليك!!! لا أدري ما الحل.. أشعر باليأس هنا..

بدأت أبكي بصمت لم أكن أريد أن أحزنه لكنني لم أستطع الكلام أكثر..

- سارة أنا مصدوم حقا! سارة هل تسمعين؟؟

أغلقت الهاتف وكتبت له انقطع الاتصال آسفة، لكن الدموع كانت أقوى مني.. هل خيبت أملك يا رامي؟ أم أن الفراق كان نصيبنا!!! متى أعود وألقاك يا قدري!!! يا ترى هل ما يزال الأمل بعودتي موجودا؟

إني أتخبط بين جدران الزمن..

أضيع في الماضي القريب ثم أعود للحاضر مكسورة الخاطر..

تائهة في حزن عميق.. يكاد يحطم القلب..

كيف سأخرج من هذه الدوامة المسمومة!

السم يجري في ضلوعي ودمي..

يخترق الروح والأنفاس يكوها..

***

تنقلب الأقدار كلها رأسا على عقب..

كان يقاتل هنا صار يحارب هناك..

هل كل جنود الحرب هكذا!

يحاربون دون هدف.. دون إرادة.. دون أن يعرفوا لمن ولماذا!!!

ثائرون على الحياة فقط..

ثائرون على الحروب والأقدار المؤلمة..

ثائرون على أنفسهم..

ولو كان باستطاعتهم لثاروا على الثورة والنظام معا..

رغم كل الأسلحة والقوى التي يمتلكونها..

إلا أن أيديهم ترتجف من وجع الضمائر..

ترتجف خوفا من النهايات القريبة..

هم من الداخل يعرفون حقا كم ستكون تلك النهاية مؤلمة.. مظلمة وجشعة..

كالمعارك التي يخوضونها تماما..

***

مشاعر

لم العتب؟

ألست أنثاك الرقيقة!

ألست من أحببتها..

الحلم والرفيقة أسميتها!

فلمن يطوق القلب؟ قل لي الحقيقة!

أجبني قبل أن تغضب بلا سبب..

هلا أعطيتني وردة..

فأعطيك عمرا ودفئا وحبا..

أنسيك ذاك الحزن.. والهم والتعب..

لم العتب؟

أنت السجين ها هنا فابق معي..

سأقفل الأبواب..

لن ترحل، قبل أن تطلق عنان الحب على مسمعي..

أنت المقيد بالسلاسل..

إياك أن تغفل..

لا عطر لا شموع لا مفتاح في مضجعي..

***

لم يكن الحزن ينفع في شيء..

بقيت على هذا الحال عدة شهور..

لكن أمي كانت دائما معي تحاورني، تسايرني، تحاول أن ترد الأمل إلى نفسي..

لم يكن بوسع رامي المجيء ولم يكن بوسعي العودة..

نحن الاثنان محاصران من جميع الاتجاهات.. لا قدرة لنا على تغيير القدر..

سلمت أمري لله وقررت أن أخرج من عالمي الحزين وأعيش..

كنت أعيش على أمل أن تنتهي تلك الحرب الخبيثة..

على أمل العودة لوطني الذي أهيم به عشقا..

بدأت أفكر في نفسي.. في مستقبلي.. في أي شيء أصنعه، أنتفع به وأنفع عائلتي..

كان البحث عن عمل هو القرار الأمثل..

خرجت أبحث عن عمل في محلات الألبسة..

كانت فكرة جيدة مبدئيا ريثما أتعلم اللغة التركية وأتقنها شيئا فشيئا..

دخلت السوق وبدأت أبحث.. كان الجواب غالبا.. لا يوجد عمل..

لكن في النهاية قالت لي إحداهن :

- يمكنك البدء بالعمل غدا صباحا تعالي في السابعة..

فرحت ونهضت في صباح اليوم التالي مسرعة للمتجر..

كنت أتحدث القليل من التركية.. تعلمت كلمات قليلة لكنها كانت تفي بالغرض..

طلبت مني صاحبة المتجر أن أنظف المكان..

أنظف!!! حسنا.. لا أريد أن أضيع فرصة العمل من يدي.. لم لا؟ سأنظف..

ما العيب في الأمر!!

نظفت المكان وماذا بعد؟

قالت لي :

اذهبي إلى محل الخياطة الذي بقربنا.. خذي هذا البنطال انتظري هناك ليتم تقصيره ثم أعيديه..

لم يكن الخياط قريبا جدا كنت أمشي خمس دقائق أنتظر لينهي عمله وأعود.هكذا لنهاية اليوم..خمسون مرة!! بل أكثر.. مشيت ومشيت بين المتجرين، شعرت بتعب شديد. كنت آمل أن ينتهي يومي بخير..

انتهى ذلك اليوم وبدأنا نغلق المتجر..

قبل العودة قالت لي صاحبة العمل : لا داعي لتأتي غدا..

أعطتني عشر ليرات تركية وقالت : انتهى عملك..

هذه الكلمات لم تكن لطيفة أبدا.. بل كانت قاسية لأنني عملت بمجهود كبير و.. حسنا كانت تجربة جديدة بكل الأحوال.. تجربة مرت وانتهت..

لكني لا أريد أن أشعر بالإحباط فقد مللت ذاك الشعور.

في اليوم التالي عدت للبحث عن عمل..

مضت أيام حتى مررت صدفة ورأيت إعلانا مكتوبا باللغة العربية..

(يلزمنا آنسة للعمل)..

دخلت المكان كان يشبه ورشات الخياطة ..

- مرحبا..
- أهلا..
- هل أنت سورية؟
- نعم أنا من حلب..
- جيد.. أنا من إدلب.. تبحثون عن آنسة للعمل أليس كذلك؟
- نعم ونريدها سورية أيضا لأننا هنا جميعنا سوريون..
- ممتاز.. إذا ما هو العمل؟
- أمبلاج ألبسة كما ترين..
- ماذا يعني الأمبلاج؟ أنا في الحقيقة لم أعمل بالخياطة من قبل..

- لا داعي للخياطة هنا نحن نستلم الملابس بعد خياطتها، ننظفها من الخيطان الزائدة، نضع عليها علامة الماركة، نضعها في أكياس منسقة، ثم نرسلها للسوق.. هذا هو عملنا فقط ولا داعي للخبرة.. سوف تتعلميه بسرعة..

- حسنا سأجرب.. متى يمكنني أن أبدأ؟

- الآن إن أردت..

- موافقة..

بدأت فورا بالعمل قبل أن نتفق على التفاصيل.. عملت مدة ساعتين وأعجبني الوضع تقريبا..

كان هناك ثلاثة شباب يعملون على آلات الكوي، وأربع بنات يعملون مثلي بالأمبلاج..

قلت لها..

- حسنا مبدئيا الوضع جيد لكن أريد أن أعرف الوقت والأجرة!!

- نبدأ من الساعة الثامنة صباحا حتى الخامسة مساء.. الاستراحة يوم الأحد فقط.. الأجرة ٤٠٠ ليرة تركية..

- حسنا اتفقنا.. سوف آتي غدا بإذن الله..

- اتفقنا.. نحن بانتظارك..

في اليوم التالي أتيت الورشة وبدأت عملي.. تعرفت إلى العاملات كانوا في عمري تقريبا.. علمت أن صاحب الورشة شاب تركي والعمال جميعهم سوريون.. في البداية اندهشت للأمر لكنني بعد فترة اكتشفت الأسباب..

انتهى وقت الدوام.. كنت أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر.. لأنني كنت واقفة كل ذاك الوقت.. ففي العمل ممنوع الجلوس..

لكن ما الأمر!!!

لماذا يواصلون عملهم.. لم يتوقف أحد!!

ذهبت للمعلمة قلت لها :

- عفوا، الساعة الخامسة والخمس دقائق.. ألم ينته الدوام؟
- لا، سنعمل ساعات إضافية.. لن نتأخر..
- لكن ظهري يؤلمني كثيرا وقدماي أيضا.. لا أستطيع أن أكمل أكثر، عدا عن الوقت الذي اتفقنا عليه..
- لا مشكلة.. بما أنه أول يوم لك، انصرفي، لكن منذ الغد عليك أن تكملي معنا الساعات الإضافية.. كي لا ينزعج صاحب الورشة ويطردك..
- هكذا إذا.. حسنا وداعا..

انطلقت وقلت في نفسي هل أكمل أم أستسلم وأجلس في المنزل!!

كلا، لن أستسلم.. علي أن أعمل وأساعد عائلتي.. بالنسبة للتعب والجهد فلا بد منهما.. علي أن أصبر وأتحمل..

لم يكن الأمر سهلا فقد عانيت كثيرا أول فترة حتى تأقلمت على التعب والوقت الإضافي.. كنا نعمل في كل يوم عدة ساعات إضافية.. نتحمل رغم آلام الظهر ومعاناة الوقوف طيلة الوقت..

بعد أسبوعين حان موعد استلام أول راتب.. كنت مسرورة ومتشوقة لذلك..

حين جاء دوري قال لي صاحب العمل :

- كان عملك جيدا نريدك أن تبقي معنا.. هذه ١٥٠ ليرة.. يبقى ٥٠ سوف أعطيك إياهم في المرة القادمة..

- شكرا ولكن لماذا في المرة القادمة ليس الآن؟ وماذا عن العمل الإضافي!!

- لم يتوفر معي المال الكافي هذه المرة.. لكن سوف تأخذي حقك بعد أسبوعين.. الوقت الإضافي أيضا سوف نحسبه لك ونعطيك بقدر ما عملت..

- حسنا..

ظننت أنها ستكون آخر مرة.. سألت العاملات :

- هل من الممكن أن يأكل صاحب العمل حقي؟

- لا أبدا.. إنه رجل طيب.. سوف يعطيك المال لا تخافي..

- حسنا.. شكرا فقد اطمأن قلبي...

عملت أسبوعين آخرين.. لكن هذه المرة أعطاني ١٠٠ ليرة فقط..

- ما الأمر يا فتيات ألم تقلن لي أنه صادق ولا يأكل حق أحد!!! لماذا ينقص الأجرة كل مرة هكذا؟

- لا تقلقي.. الأمر طبيعي لن يأكل عليك المال، لكنه في ضيقة مادية هذه الفترة، ويجب علينا أن نسانده فهو رجل طيب..

- حسنا أنتن فتيات سوريات مثلي.. سوف أثق بكن وأكمل عملي..

وهكذا حتى مضت ثلاثة شهور على هذا الحال..

لا شيء يتغير ودائما نفس الكلام ونفس المبررات والوعود..

قررت أخيرا أن أطالب بحقي من المال..

ذهبت لصاحب الورشة وكلمته عن الأمر.. قال لي ببساطة ليس معي مالا أعطيك إياه وإن كان هذا قرارك حقا، فاتركي العمل لا مشكلة في ذلك!!

- حسنا سأترك العمل لكن متى تعطيني حقي من المال؟

- لا أعلم.. اتصلي بي بعد شهر فإن كان المال متوفرا سأعطيك بالتأكيد!

إحدى العاملات السوريات قالت لي :

- إنه يفعل هذا الشيء مع الجميع ليس معك وحدك..

- ولكن!! لكنني حين سألتكن كانت إجابتكن مختلفة تماما!!

- إني أعمل عند هذا الرجل منذ سنة.. والآن أريد منه مبلغ 1000 ليرة تركية.. حين أطالبه بحقي يقول لا تقلقي سوف أعطيك مالك، لكن بشرط ألا تتكلمي للفتيات الجدد عن أمر المال..

وهكذا يفعل مع جميع الموجودين.. نحن نخاف أن نتكلم عن الأمر فيأكل علينا ما تبقى من حقنا..

- كيف تكملن العمل بتلك الطريقة! إنه نصاب هذا أمر واضح جدا.. ألم تدركن تلك الحقيقة بعد؟

- نعرف تماما.. لكننا جربنا الكثير من الأعمال هنا وكل أصحاب العمل يفعلون ذات الأمر. عندما شعرنا باليأس قررنا أن نبقى هنا ونرضى بالقليل.. القليل أفضل من لا شيء ونحن بحاجة شديدة للمال، فالحياة هنا صعبة والاحتياج أصعب كما ترين..

خرجت من المكان غاضبة كثيرا.. يريدون عمال سوريون فقط.. ليس لسواد عيونهم!

بل كي يحتالوا عليهم بالأعمال الشاقة والأجرة القليلة.. ثم يأكلون حقهم من المال فلا ضمان ولا عقد ولا أحد يعيد مالهم وتعبهم..

ذهبت للمنزل مرهقة لا حيلة لي ولا جدوى من الحزن..

قال لي أبي : ما بك يا سارة؟

قلت : لا شيء يا أبي فقط تركت العمل لأنني تعبت منه حقا..

(لم أستطع أن أخبره عن أمر المال.. لا أريده أن يحدث مشكلة مع صاحب العمل)

– ألم أقل لك، دعك من العمل فلا فائدة منه!

- معك حق يا أبي لن أعمل هنا ثانية..

- لن نبقى طويلا في تركيا يا ابنتي.. سوف نرحل قريبا!

- حقا!! إلى أين؟ لن نستطيع العودة لإدلب أليس كذلك!

- سنعود إن شاء الله.. لكن ليس الآن..

من الأفضل أن نغادر إلى أوربا في الوقت الراهن..

- أوربا! لماذا وكيف؟؟

- كلمني صديقي اليوم وأخبرني عن لجوئه للنمسا وأن الحياة هناك مختلفة تماما.. اللاجئ في تلك البلاد يا ابنتي إنسان معزز مكرم.. له حقوق مثله مثل

المواطن الأوربي.. ما إن نصل إلى هناك سوف يعطوننا منزل نسكن فيه ومرتب شهري يكفينا ويزيد..

- هكذا دون أن نفعل شيء؟؟
- نعم.. إنها سياسة دول وقرارات مفروضة عليها..
- لكننا سنبتعد كثيرا عن سورية.. لا أريد ذلك أبدا..
- ألم أقل لك سنعود! إنه لجوء مؤقت..
- ومن أين لنا المال لسفرة كهذه؟

– لقد أوصيت عمك ببيع المزرعة، وحين تباع سوف يرسل لنا المال ونتوكل على الله..

– تريد أن تبيع أرضنا!!! (انتفضت أمي).. تلك التي تحكي كل بقعة فيها ألف قصة وذكرى لنا! شجرة الجوز ارتفعت أغصانها حين طال ليلنا بالسهرات وعلت ضحكاتنا، شجرة الرمان والتين والزيتون و...

- كفى بربك! لم أعد أحتمل أكثر.. هذا ما قررت ولا أريد نحيبا بعد اليوم..

(بكت أمي) فقال لها بهدوء ومواساة :

– هذا قدرنا يا امرأة وتلك مشيئة الله لنا، ماذا عسانا نستطيع أن نفعل؟

مسحت دموعها وأجابت :

- الحمدلله على كل حال، افعل ما تريد وأعدك أن أكون معك..

***

في كل تلك الفترة لم يحدثني رامي إلا مرتين..

وفي كل مرة يكون مستعجلا أكثر من ذي قبل..

بدأت أشعر باليأس من كثرة محاولاتي للاتصال به دون رد..

أشعر بالإحباط من كثرة دموعي في كل ليلة دون جدوى..

أفكار سوداء تخيم على عقلي فتصفعني وتحزنني لتهلك ما تبقى بي من قوة..

لقد تغيرت كثيرا.. لم أعد سارة الطفولية الجميلة.. طالبة العلم المرحة العفوية..

نضجت قبل أواني.. قلبي تحطم أشواقا وحزنا وحنينا..

لم أعد أسمع فيروز كل صباح، لم أعد أحب المطر..

أصبحت أخاف من عتمة الليل..

أخاف على قلبي من عمق الصدمات..

وماذا بعد!!!

لا شيء سوى التفكير والانتظار..

مر أكثر من أسبوع على جلوسي في المنزل دون عمل. استيقظت اليوم صباحا.. أشعة الشمس مشرقة والجو جميل.. ماذا سأفعل؟

سوف أتصل برامي كعادتي عسى أن يرد..

اتصلت.. رن هاتفه بعد شهور من إغلاقه..

بدأ قلبي يخفق بشدة.. خوفا ورهبة..

شوقا وفرحا..

لا أعلم كيف أصف مشاعري في تلك اللحظة..

لكنه لم يرد!! عاودت الاتصال به مرة أخرى..

- ألوو.. ألووووو..

سمعت صوته حقا.. إنه رامي يا إلهي!

بدأت تزداد دقات قلبي أكثر وأكثر..

يداي ترتجف.. صوتي يهتز..

وقلت له :

- حبيبي رامي.. الحمدلله أني سمعت صوتك أخيرا لا أصدق ذلك! كيف حالك يا عمري؟

- سارة! (كان في صوته برود غير طبيعي)

- نعم سارة ألم تعرفني!!

- الحمدلله أنا بخير.. كيف حالك أنت؟

- اشتقت لك كثيرا يا رامي (بدأت أبكي)..

- أريد أن أقول لك شيئا يا سارة..

- قل!

- أرجوك نفذي ما أطلبه منك دون أن تسأليني عن الأسباب.. انسني يا سارة واحذفي رقمي، أنا وأنت لن نكون لبعضنا يوما.. (ببرود أيضا)..

- رامي.. أنت تعي ما تقول!

هل كنت تلعب بمشاعري كل تلك المدة! أنا وأنت منذ أكثر من سنتين في علاقة حب تريد أن تنهيها هكذا! بكل برود؟؟ بهذه البساطة!!!

(تنفس بعمق وصمت قليلا ثم أكمل)

- سارة أرجوك! أنا آسف سأغلق الهاتف الآن..

- رامي أرجوك لا تغلق! لا تتركني هكذا أنا أحبك لا تقتلني بكلماتك.. قل لي أنك تمزح معي.. قل أي شيء..

(زفر بقوة ولم يتكلم)

- لا تصمت هكذا تكلم أنا أسمعك..لماذا فعلت هذا بي؟

- سارة وداعا.. آسف..

(أغلق الهاتف)

شعرت أن قلبي يخرج من مكانه شيئا فشيئا..

شعرت أن جسدي مخدر بالكامل..

عقلي لم يعد يعمل ولا يفكر بشيء..

الصدمة كانت أقوى من كل حروب العالم..

لم أستطع السيطرة على نفسي بل أجهشت بالبكاء لوحدي في زاوية تلك الغرفة..

أضم جسدي وأضع رأسي على ركبتي وأبكي بحرقة..

هكذا حتى غفوت وأنا على هذا الحال..

لا أعرف المدة التي بكيت فيها ولا المدة التي نمت فيها فقد تغير التوقيت كله في أركان جسدي وعقلي..

لم أعد أدرك شيئا سوى الألم فقط..

احتجت وجود إحدى الصديقات معي.. تمنيت لو أملك أختا أحكي لها فتنصحني وتواسيني..

لا أريد أن أكلم أمي عن الأمر فتحزن على حالي.. كفاها حزنا على ما أصابنا..

اشتقت لصديقتي لونا فكلمتها :

- آه يا لونا لقد تركني رامي دون سبب واضح..
- حبيبة قلبي يا سارة لا تحزني فهذا أفضل لكل منكما..
- أنا أموت من الحسرة والألم فما الأفضل في ذلك!

- كفاك يا سارة انسي أمره إنه مقاتل الله أعلم بحاله لا تلوميه على ما ليس بيده.. عيشي حياتك لنفسك ولا تنتظري أملا كاذبا..

- هل تعتقدين أني أستطيع النسيان؟

- لا تزعلي مني يا سارة لكن هذه العلاقة منذ البداية خاطئة ومكتوب لها الفشل فلا تعذبي نفسك أكثر من ذلك..

- معك حق يا لونا لكن حبه لم يكن بيدي.. قلبي هو الذي حطمني لا أستطيع أن أتمالك نفسي.. لم أعد أحتمل أكثر..

- إذا ادعسي على قلبك وأكملي طريقك.. كوني قوية وتعلمي من أخطائك فكلنا بشر وقلوبنا ضعيفة تجاه الحب..

أخذت لونا تحدثني عن صعوبات الحياة في سوريا وعن المعاناة والموت وأمهات الشهداء والمعتقلين والظلم..

حتى شعرت أن الجميع يتألم لست أنا وحدي.. أيقنت أن الوجع جزء من حياة البشر.. نتقاسمه جميعنا لكن بأوقات وظروف مختلفة.

مشاعر

نحن من نحوم حول أحزاننا بأنفسنا..

نحن من نلهث وراء الحب حتى لو أيقنا قسوة النهاية..

نحن من نصنع اكتئابنا بأيدينا..

ثم نبكي بهدوء كي لا يسمعنا أحد..

نبكي بصمت كي لا يهتز كبرياؤنا..

ونبقى هكذا حتى نستيقظ من الوجع أقوى من ذي قبل..

نفيق من غفلتنا لكن الحب يبقى نائما في القلب..

ينام طويلا ريثما يعود للحياة مرة أخرى..

وحين يعود..

يعود أكثر قوة وأعمق تأثيرا..

***

مرت عدة شهور حتى تمكنت من استعادة جزء من قوتي.. بدأت أتحسن شيئا فشيئا..

شعرت أن الله يعطيني قوة إضافية كنت أظن أنها سلبت مني..

بدأت أصحو من غفلتي وألمي..

تعلمت أن لا أحد يشعر بوجعي سوى نفسي، وأن السعادة أنا فقط من يصنعها..

وأن الحب لا بد أن يمر على قلوبنا، فهو رغم عذابه ممتع جدا..

هو مرحلة إن لم نعشها، لن نكتشف مشاعرنا ومدى صبرنا وقوتنا..

فشله لا يعني نهاية الحياة والمشاعر.. لا يعني فشلنا وعدم قدرتنا على تحقيق سعادتنا..

بل يعني قوة إضافية سوف نكتشفها داخل أرواحنا، قوة لم نكن نعرفها..

يعني أننا نعيش تجربة مختلفة لها مذاقها الخاص..

تجربة تعلمنا الكثير من الأشياء الجديدة..

تعلمنا كيف نتعامل مع أهوائنا وحاجاتنا العاطفية..

تكشف لنا خبايا ضعفنا تجاه مشاعرنا.. وقوتنا تجاه الصبر بالتحكم بها..

فشل العلاقات ليس نهايتها.. بل هو بداية لاكتشاف أنفسنا..

أهلي كان شغلهم الشاغل الحديث عن السفر والطريق لأوربا..

منذ مدة كان هذا الموضوع يحزنني، لكنه اليوم ضروري بالنسبة لي..

أريد أن أعيش تجربة الهجرة.. أريد أن أمضي إلى دنيا جديدة عسى أن أجد فيها ملاذي وسعادة قلبي..

إنني اليوم مستعدة للمغامرة والمخاطرة.. أريد أن أحقق شيئا، مهما كان الطريق لذاك الشيء وعرا وقاسيا..

القوة التي امتلكتها جعلتني قادرة على تحقيق ما كنت أظنه مستحيلا..

الحياة فيها الفرح والألم..

أنا التي سوف تختار إحداهما..

فإما أن أبقى مكسورة غارقة في أحزاني، أو أن أقاوم كل ألم وأكسر كل حاجز يقف بيني وبين سعادتي..

وأنا قررت واخترت..

استيقظت اليوم صباحا..

صنعت فنجان قهوتي بنفسي..

بدأت أسمع فيروز كعادتي القديمة..

وضعت حبة شوكولا بفنجان القهوة وفتحت النافذة المطلة على حديقة الحي..

أرسلت الشمس أشعتها المضيئة لنافذتي كأنها تصبح علي..

العصافير كانت تقف على الشجرة ثم تطير.. أخذت أتأمل جمالها وإبداع الخالق في تكوينها..

تغريدها الذي كان يندمج بصوت فيروز فيصبح لحن الأغنية أجمل وأرقى..

كان الشجر مبتلا بقطرات الندى بعد ليلة ماطرة..

كان فيها مزيج من الهدوء والضجيج المنسق بآن واحد..

أما تلك الوردة الحمراء الجورية فكانت أجمل من كل أخواتها..

مختالة في وقفتها.. تلسعها نسمات الهواء برقة فتميل ثم تعود كأنها تتراقص فرحا ودلالا..

أخذت أتأمل جمال وسحر الحياة من حولي..

الحياة التي كانت مخفية وراء ستار الأمل الكاذب..

أريد اليوم أن أعيشها بكل تفاصيلها لأجلي أنا وحدي..

رشفت رشفة من قهوتي المرة، ثم عدت للتأمل وكأنني أرى الطبيعة للمرة الأولى..

كان ذلك ممتعا حقا.. مريحا للنفس أيضا..

خطرت لي فكرة أخرى..

اتصلت بحنان إحدى الفتيات اللاتي كنت أعمل معهن.. قلت لها ما رأيك أن نخرج للتسوق اليوم؟

قالت : لا مانع لدي، إذا دعينا نلتقي في الخامسة عصرا..

اتفقت معها وحضرت نفسي جيدا..

ارتديت أحلى ما عندي، وضعت القليل من الحلي والزينة ثم خرجت..

التقينا وذهبنا معا للتسوق..

***

وسط ازدحام السوق قابلت رفيقتي.. كان الجو جميلا والشمس ساطعة..

نسمات الهواء تزداد سرعتها تارة وتنقص تارة أخرى..

يروق لي هذا الجو.. أحب النسيم حين يداعب وجهي.

أحب العودة لزمن الصداقات والمشاوير التي تنعش القلب..

رأيت ملابسا أعجبتني دخلت المتجر جربتها واشتريتها..

المثلجات شكلها يبدو لذيذا.لا أستطيع مقاومتها. وقفنا عند بائعها في الشارع. سألناه عن سعرها فقال ليرتان فقط..

كان الرجل كبيرا في السن، تجاعيد وجهه قد مر عليها زمن طويل، يداه ترتجفان، وجهه قد اسمر من حرقة الشمس والوقوف تحتها طول النهار، لكن ابتسامته كانت تحكي قصصا عن تحدي الصعاب وروح الشباب التي تسكنه..

اشترينا المثلجات وجلسنا في الحديقة المجاورة. أخذ الحمام يحوم حولنا بهدوء ورويةٍ . ينتظر من يلقي له بقايا طعامه، كي يبدأ التنافس من سيحصل على الحصة الأكبر.. ونحن بدورنا أخذنا نلقي له ما تبقى من طعامنا.. فيركض نحونا كأنه جائع منذ أيام.. يأكل ويأكل وينتظر المزيد..

كل شيء حولي جعلني أبتسم وألهو وأشعر بالحياة مجددا..

***

قالت لي حنان :

- سارة أنت اليوم غريبة عني..

- لماذا؟

- لست أدري لكنك لم تكوني هكذا.. يبدو بعينيك الحزن وبجسدك السقم..كان وجهك مضيئا كنور القمر.. وجسدك مكتنز، لم تكوني نحيلة كما اليوم.

- لست مريضة الحمدلله.. على العكس أشعر أنني بحالة جيدة..

- أظنك تخفين شيئا عني.. بل أشياء! أليس كذلك؟

- حنان صدقيني أنا بصحة جيدة.. أيا يكن لا أريد الخوض في أحاديث لا فائدة منها..

***

بدأت السماء تلمع وتبرق وكأننا في الشتاء.. رغم أننا مازلنا في فصل الصيف..اعتذرت حنان ودعتني وعادت لبيتها، لكنني لم أكن أريد العودة..

بل أريد أن أتحدى المطر.. لم أعد أخافه بعد اليوم..

أريد أن أشعر به يبلل جسدي وروحي من جديد..

لن أهرب منه بعد اليوم أبدا (قطعته وعدا على نفسي)..

ما هي إلا لحظات قليلة حتى شعرت بأول قطرة تسقط على خدي..

أغمضت عيناي ورفعت رأسي للسماء وأنا جالسة وحدي على ذاك المقعد العتيق..

أحببت أن أتأمل العتمة وسط زحمة الناس وبرق السماء ورعدها..

لكنني لم أكن أرى سواد نوم الجفون.. كنت أرى وجهك.. وجهك فقط..

كان يائسا حزينا، لكنك كابرت على نفسك وابتسمت لي..

فابتسمت لك أيضا رغم الألم.. رغم كل السواد والعتمة في قلبي، كان وجهك هو النور.. هو الشمعة التي تضيء ما تبقى من فتات روحي الممزقة..

رغم حماقتي حين ظننت أني نسيتك حقا..

وضعفي حين ظننت أني قوية جدا..

فتحت عيناي بعد أن غسل المطر وجهي .. وغسل الماء قلبي الذي ما زلت تنبض فيه..

ما زلت في ذاكرتي ولم تزل..

رعد قلبي حين اضطرب من أشواقه المؤلمة..

ثم لم أعد أعرف الفرق بين زخات المطر ودموعي..

بدأت سيول الأمطار تزيد وتزيد.. وأنا لازلت شاردة باكية وحدي على مقعدي هناك تحت المطر..

نظرت حولي رأيت الناس قد انفضوا، منهم من حمل المظلات ومنهم من اختبأ..

وقفت وبدأت أرتجف بردا. قررت أن أمشي للبيت تحت المطر..

مشيت في طريقي بهدوء.. لم أكن أريد أن ينتهي ذاك الشعور..

كنت ممتنة للأمطار التي أعادت لقلبي نبضه الحزين من جديد..

مازلت أريد أن أتحدى قلبي والألم الذي أصابه..

أردت أن أحطم ذلك الحاجز الذي بنيته لروحي بيدي..

أردت أن أعيش إحساسا، كان لابد أن أشعر به قبل أن أكمل معركتي مع النسيان..

لم يزدني الطريق إلا حسرة ودمعا وإعصارا داخل أركان روحي المظلمة..

فجأة توقف المطر.. عادت أشعة الشمس تلامسني.

أطل قوس قزح بألوان جميلة مشرقة..

يا إلهي ما هذا الجو المجنون..

إنه كقلبي تماما.. تارة يضعف تارة يقوى..

تارة يحن وتارة يجن..

لكنه لم ينساك أبدا..

ولا أظنه سيعرف طريقا للنسيان يوما..

***

مشاعر

كان حبك سكينا صاقعا كالجليد...

أشعر أن الموت يتجدد داخل روحي يوما بعد يوم..

ساعة تلو ساعة..

لحظة تلو لحظة..

الموت الأكثر حقيقة من أي شيء آخر..

كيف تطيب لك الحياة دون وجودي..

كيف تمر قرب تلك الياسمينة الشامية!!

دون أن تفوح ذكراي في عطر قلبك!!

أيعقل أن تنسى طفلتك الشقية؟

تنساها كأنها ما كانت ولم تكن..

برائتها ضحكتها حزنها ودموعها..

غضبها حين تغار..

وجنونها حين تشعر باليأس منك ومن شرقيتك المثيرة للشفقة..

أي حب أنت؟

أي لعنة حلت علي منذ رأيتك حتى الأزل!!

فسحقا لقلبي الذي يؤلمني بشدة..

لدرجة أنه جعل منك مركز الكون بأعماق روحي..

وفي عقلي مركز الجنون..

****

وصلت المنزل عند غروب الشمس تقريبا..

طرقت الباب، فتحت لي أمي ونظرت بغضب، ثم قالت لي :

- أين كنت كل هذا الوقت يا سارة؟

- ألم أقل لك يا أمي! كنت مع حنان في السوق!

- نعم قلت لي أنك لن تتأخري أكثر من ساعة..

كم الساعة الآن؟

(نظرت لهاتفي فوجدت عشر مكالمات لم يرد عليها!)

- آسفة لم أكن أتفحص الهاتف.. كنت مشغولة بالتسوق فقط..

- انظري لنفسك كيف بللك المطر دون أن تبالي.. ما بك؟ أتريدين أن تمرضي؟ ادخلي وإياك أن تتأخري كل هذا الوقت مرة أخرى..

- حسنا يا أمي سأكون حريصة في المرة القادمة..

شعرت بالنعاس بعد يوم طويل ومرهق، فاستسلمت للنوم وغرقت فيه..

راودني حلم غريب :

كان رامي معي، أعطاني رسالة فجلست أقرؤها.. كتب لي فيها :(حبيبتي سارة.. يا ذات العينين الجميلتين.. أعتذر عن قسوتي معك.. أعتذر عن كل دمعة اعتصر بها قلبك لأجلي.. سامحيني يا حبيبتي.. فسوف أموت قريبا) نظرت إليه كي أقول له : سامحتك يا رامي.. لا تقل هذا الكلام، بعد عمر طويل..

لكني لم أجده.. ناديته بصوت عال : رامي.. رامي..

لم يكن هناك أحد.. رحل رامي..

فتحت عيناي وجدت جسدي يرتجف بردا.. حاولت أن أنهض لكنني لم أستطع..

ناديت أمي فأتت..

- ما بك يا ابنتي! ماذا حل بك؟

وجهك أصفر كالليمون. هل أنت مريضة؟

- لا أعلم لكنني أشعر بالبرد الشديد أريد غطاء..

اقتربت مني لامست وجهي وقالت :

- جبينك ساخن مثل النار. حرارتك مرتفعة..

لكن لا بأس سأجلب لك حبة دواء..

شربت الحبة ثم كوبا من الليمون المغلي، وحاولت النوم مجددا.

حاولت كثيرا لكنه المرض كان يطعن جسدي بقوة وصمت، فيضعفني ويفتك بي..

تسللت في منتصف الليل نحو بيت الخلاء بهدوء.. ثم شعرت أني لن أكمل الطريق بسلام، سقطت أرضا فتألمت حتى غاب عني الشعور..

استيقظت صباحا على صوت الطبيب يتكلم باللغة التركية. كنت أفهم نصف كلامه تقريبا..

وجدت نفسي في المشفى. كان أبي يجلس بجواري وأمي في تلك الزاوية واقفة باكية..

- سارة! أنت بخير يا ابنتي لا تقلقي..

(إنه صوت أبي الحنون ويده فوق رأسي)

- سارة حبيبتي حمدا لله أنك فقت..

(أمي التي أنبأتني بالمرض قبل وقوعه)

- لا أذكر شيئا سوى أنني وقعت أرضا!

- لا عليك يا ابنتي.. قال الطبيب أنك بخير، ارتفاع حرارة وحالة نفسية فقط لا أكثر..

وقد أوصانا أن نغمرك دلالا فاطلبي وتمني!

ماذا تريدين أن تأكلي؟

- لا أشعر بالجوع يا أبي. أريد ماءا فقط..

- هذا كأس الماء لأجمل فتاة في هذه الدنيا، تفضلي..

- شكرا يا أبي.. فليمد الله بعمرك أنت وأمي بالصحة والعافية..

بعد ساعتين عدنا للمنزل وبدأت أتحسن..

جاءت أمي لغرفتي جلست بجواري وقالت لي :

- سارة أريد أن أكلمك بموضوع..

- أسمعك يا أماه..

- لست بلهاء ولست جاهلة.. أعلم أنك لست على ما يرام وأنك مريضة بسبب رامي..

- أبدا.. رامي لا دخل له، لقد نسيته تماما..

- سارة! أنا أمك وأعرفك جيدا حين تصدقين وحين تكذبين!

- حسنا.. أنا لا أكذب! فقط لست أعلم ما الذي يجب فعله، حاولت جاهدة مع قلبي لكنه لا يريد أن ينسى. قولي لي يا أمي ما الحل! أرشديني أرجوك!

(اغرورقت عيناي بالدموع)

- الحل هو النسيان، كوني قوية واشغلي نفسك عن التفكير به بأي شيء. أنت قوية يا سارة والعلاج بين يديك فقط..

- إني أحاول!

- بعد يومين سوف نسافر إلى اسطنبول ثم إلى أوربا.
- أحقا؟
- نعم استعدي للرحيل..

***

يبدو أن الرحلة ليست سهلة، فجميع من جربها واجه المتاعب والصعاب.

لست أعرف ما الذي ينتظرني بالأيام القادمة..

لكنني سأكون قوية كما عاهدت نفسي. سوف أتحمل المتاعب للوصول لمكان آمن، عسى أن أكمل تعليمي وأحيا لنفسي أياما تعوضني قليلا عن آلام الحب والحرب..

لملمت القليل من أشيائي واستعددت جيدا لإكمال الطريق الطويل من الهجرة فيبدو أننا مازلنا في بدايته.

***

أنا، أمي، أبي وأخي بدأت رحلتنا في أواخر الصيف تحديدا في منتصف شهر سبتمبر 2015..

انطلقت الحافلة في السادسة صباحا من مدينة كهرمان مرعش نحو اسطنبول.

كان الطريق طويلا مرهقا..

تأملته بروية ومتعة، شعرت أنه يشابه الطريق الذي مازال يلامس روحي في الأعماق.. ذاك الذي تمنيت يوما أن أمشيه خطوة خطوة وأعد أشجاره الشاهقة شجرة شجرة – طريق إدلب حلب.. قرع الحنين أعماقي ككل مرة..

في روحي أشياء خفية تلاحقني بين حين وحين. أشياء لا يمكن وصفها..

هي مشاعر حين تطرق الباب ينتابني الضعف والاستسلام لإحياء ذكرى ظننتها منسية..

هو ذاك الحب العتيق للوطن والحنين له..

***

نزلنا بعدة مناطق للاستراحة أثناء الرحلة..

شربنا خلالها القهوة وأكلنا شطائر الجبن الشهية..

وصلنا في حدود السابعة مساء. اخترنا أحد الفنادق الشعبية ونمنا فيه ليلتها..

فالأسعار هناك كانت مرتفعة نسبيا..

ونحن علينا توفير المال بقدر استطاعتنا، كي نكمل رحلتنا بسلام..

كانت الغرفة التي نمنا فيها تحتوي سريرين فقط، فهي مهيأة لشخصين لا أكثر..

تبرع أبي وأخي بالنوم على الأرض..

ونمت أنا وأمي على الأسرة..

كان الليل باردا لا قمر فيه..

لا دفء.. لا ابتسامة..

لاشيء سوى الحنين والحنين..

وهناك في آخر طبقة من عتمة السماء، يوجد نجم حزين.. يريد الرحيل ولا يريد..

يتقلب ما بين العتمة والنور.. ما بين الخيبة والأمل..

بقي هكذا مترددا طول الليل حتى طلعت الشمس وأجبرته على الهدوء المظلم..

- هيا يا سارة استيقظي علينا الرحيل..
- كم الساعة يا أمي؟ لم أنم قبل الخامسة صباحا..
- الساعة الثامنة هيا فالوقت لا ينتظر أحدا..
- آه يا إلهي أنا متعبة ومرهقة جدا أريد النوم ربع ساعة فقط..
- ولا حتى دقيقة.. انهضي وارتدي ملابسك سوف نخرج..
- حسنا.. (يا رب أعطني القوة والصبر) قلتها في نفسي..

خرجنا مسرعين. تناولنا فطارنا في الشارع (شطائر الجبن ثانية)..

ثم قطعنا كروت المواصلات وذهبنا لمكتب المهرب الذي اتفق مع أبي مسبقا..

الرجل سوري يعرفه أبي منذ أيام الشباب. سلم علينا ورحب بنا ودعانا للجلوس..

- صديقي أبا المجد كيف حالك..
- بخير الحمدلله. قل لي يا عمر كيف هو وضع رحلات التهريب بصدق. كما ترى نحن عائلة وأنا لا أريد المخاطرة بأرواح عائلتي..
- لا تقلق يا أبا المجد سوف أطلعك على أدق التفاصيل..الرحلة آمنة ولا داعي للخوف..
- حقا! نحن نتمنى ذلك، لكننا نسمع يوميا عن حالات الغرق والموت..

- صحيح، لكن هذا المهرب التركي الذي نتعامل معه حريص جدا على أرواح الناس.. أنصحكم بالبلم المطاطي فهو أضمن من الطائرة وأفضل من اليخت السياحي!

- كيف ذلك!

- الأخطاء التي يفعلها المهربون الآخرون تسبب الحوادث.. البلم حين يحمل ما بين 30 و 35 شخص لا يتسبب بأي مشكلة ويكون آمنا جدا. للأسف المهربون يضعون أكبر من هذا العدد بكثير، عندها لا يتحمل البلم ذاك الثقل الكبير فيغرق.. أما معنا فلا تقلق أبدا. لأن سلامتكم أهم شيء بالنسبة لنا..

- حسنا لقد طمأنت قلبي. توكلنا على الله دعنا ننطلق في أسرع وقت..

- لحسن حظكم الطريق البري بعد اليونان مفتوح وسهل جدا هذه الفترة. أتمنى أن تصلوا بخير وسلامة. وإن وجدتم عدد ركاب رحلة البلم أكثر من 35 شخصا عودوا على الفور.. الرحلة سوف تنطلق بعد ساعتين فاستعدوا..

- حسنا.. كم أجرة تلك الرحلة لأربعة أشخاص؟

- لكل شخص 1000 دولار فقط!

- فقط!!!

كان علينا أيضا شراء سترات النجاة. يوجد متجر ألبسة في نفس الشارع يبيع من تلك السترات.. اشترينا أربعة وأخذنا بعض الأطعمة الخفيفة التي قد نحتاجها في الطريق..

بعد ساعتين كلمنا عمر وأرسل لنا موقع المكان الذي سوف ننطلق منه..

ذهبنا للمكان على الفور. استغرق الطريق ما يقارب النصف ساعة سيرا ..

حين وصلنا كان هناك عدد كبير من الناس في الحديقة. وقف أحد الشباب بقربنا وقال بهدوء :

- تفرقوا لا تقفوا هكذا جماعة واحدة، سوف تلفتون الأنظار حتما.. وانتبهوا لي حين أمشي اتبعوني بسرعة، لكن إياكم أن تمشوا سويا فالشرطة في كل مكان..

انتظرنا في الحديقة حوالي الساعة.. ثم مشى الشاب فتبعناه..

سرنا مدة ساعتين وأكثر حتى وصلنا للمكان المطلوب..

كان هناك عدة حافلات بانتظارنا..

كل حافلة تتسع لخمسة وثلاثين شخصا.. صعدنا إحداهن وأخذنا أماكننا..

انطلقت الحافلة الأولى وبعد نصف ساعة انطلقت حافلتنا..

الحافلة كانت غريبة الأطوار كأنها خارجة من حادث أليم..

المقاعد مكسرة والنوافذ أيضا، تم استبدال النوافذ بستائر مغلقة..

الشاب المسؤول عن الحافلة بدأ يعطينا التعليمات..

- أنتم اسمكم جماعة أبا حمزة. احفظوا الاسم جيدا. ممنوع فتح الستائر.. ممنوع تشغيل الأضواء هنا إطلاقا.. سوف نصل إلى قرية من قرى أزمير بعد حوالي 12 ساعة أو أكثر..

انطلقت الحافلة بنا خارج المدينة، قادها السائق بسرعة جنونية..

الطريق مظلم، كنا نراقبه من البلور الأمامي المقابل للسائق..

لم يكن يقود في الطريق العام المخصص لقيادة السيارات!

إنما كان طريق قديم مهجور غير صالح للقيادة!

الحافلة أصبحت بحالة حرجة.. تهتز بقوة لدرجة أننا شعرنا أن حادثا أليما بانتظارنا..

جلسنا نقرأ الآيات القرآنية وندعو الله أن نصل بسلام..

بعد ثلاث ساعات لمع ضوء قوي بوجوهنا..

يا للمفاجأة! إنها سيارة الشرطة!

أوقف السائق الحافلة وصعد الشرطي إلينا.

كان يتحدث التركية، نظر بوجوهنا وطلب جوازات السفر. تفحصهم وأعادهم لنا..

احتجزوا السائق وأعادونا من حيث أتينا إلى مدينة اسطنبول..

لم نكن نصدق أنها انتهت هكذا، فحينها كنا نفكر بعقوبة السجن أو الترحيل لسورية..

عدنا لمكتب عمر الذي قرر تأجيل الرحلة عدة أيام، ريثما يجدوا حلا للطريق..

أخذنا عمر لمنزل كبير يحتوي أربع غرف. أعطانا غرفة ووزع باقي الغرف على ثلاث عائلات أخرى..

قررنا أن نستكشف اسطنبول خلال تلك المهلة..

رحلتنا الأولى كانت أكثر من رائعة. جامع السلطان أحمد (المسجد الأزرق) لم يكن مسجدا عاديا بل كان أجمل ما قد تراه العين من التحف والزخارف والأحجار القديمة الأثرية والرسوم الفنية المدهشة.. المسجد الذي تميز بمآذنه الست كان قد مزج بين فن العمارة الإسلامية وبين الهندسة البيزنطية في لوحة متكاملة من العراقة والأصالة..

في ذات المنطقة قمنا بزيارة أشهر متاحف اسطنبول (آيا صوفيا)..

روعة وسحر الآثار والتحف الرخامية بين القبة والجدران كنوز لاتقدر بثمن..

خليط من اللوحات الفنية الإسلامية والمسيحية، مزيج من العراقة الدينية التي تدب في قلب ناظرها نفحة من الإيمان فتعيده إلى زمن السلاطين وعصر المماليك..

ثم إلى قصر الباب العالي (توبكابي) من أهم المعالم السياحية أيضا..

حيث كان مركزا لإقامة سلاطين الدولة العثمانية منذ أربعة قرون مضت..

يحوي العديد من الآثار الإسلامية النادرة منها بردة النبي صلى الله عليه وسلم وسيفه..

يتربع على عرش جمال مدينة اسطنبول جسر البوسفور الذي يربط بين الشطر الآسيوي والأوربي منها..

إنه ذاك الخط الوهمي الذي يتأرجح ما بين الشرق والغرب..

هو ذات الحد الفاصل ما بين قلبي وعقلي..

أشياء تخيلناها ثم رسمنا حدودها فصدقنا وجودها..

داخل العقل البشري لا حدود للإبداع والتخيل..

أما داخل القلب في الصميم والأعماق فلا حدود للعواطف والحنين..

نعم هكذا شعرت في اسطنبول!

حين ركبت البحر في رحلة على متن قارب أبيض لؤلؤي.. حين توسطت المسافة بين الشرق والغرب..

أحسست بالكمال.. كمال وعظمة الخالق تجسدت ها هنا.. ما بين العقل والقلب.. ما بين الشرق والغرب..

أمواج البحر مع مشهد غروب الشمس وروعة المكان لم تزد في الروح إلا الشوق واللوعة..

قرعت تلك اللوحة الإبداعية أبواب القلب في الأعماق.. حتى أحيت عواصف الحب النائمة من جديد..

كم كان متعبا ذاك القلب من الصبابة والأشواق والحرمان..

يغفو مرة وينتفض مرات.. يشعل شمعته الحزينة كي تنير طريقه فتحرقه بنارها..

هو هكذا لا يعرف سوى الغرق في بحور الحب المستحيل..

لكن إلى متى؟ أما آن الأوان للنسيان بعد!

ألم يتعلم أن الشوق لا جدوى منه!

وأن الحب لا يحمل إلا العذاب والألم!!

***

ثلاثة أيام قضيتها في اسطنبول زرت بها أهم المناطق وأروعها.. لم يكن قلبي يتوق للرحيل.. لكن يبدو أنه حان الوقت لإكمال طريقي الطويل..

هذه الليلة مختلفة قليلا عن ذي قبل..

أحداث الرحلة الأولى تكررت لكنها اكتملت بوصولنا للشاطئ بسلام..

من اسطنبول إلى إحدى قرى أزمير.. الطريق كان طويلا مرعبا بعض الشيء.. ليلنا كان مظلما باردا ومتعبا..

عبرنا طريقنا بالحافلة ثم بالعبارة التي مضت بنا في هدوء البحر العميق ..

ترافق وصولنا للشاطئ مع إرسال الشمس أول خيوطها الذهبية لإعلان بداية فجر يوم جديد..

تفاجأنا بوجود أعداد كبيرة من الناس تنتظر انطلاقها إلى الأمل القريب من نفس المكان..

انتظرنا قدوم القوارب المطاطية في مكان قريب من الشاطئ..

الصمت والهدوء يعم المكان رغم ازدحامه..

فالجميع يتحدث بصوت منخفض كي لا نحدث الضجيج ونلفت الأنظار لخفر السواحل التركي..

رجال، نساء،أطفال وشيوخ. الجميع ينتظر دوره رغم الخوف والقلق من المصير المجهول..

أخذ أبي يلقي علينا إرشادات الوصول بأمان..

ارتدوا سترات النجاة، اجلسوا بجانبي ولا تخافوا من البحر، اتركوا هواتفكم جميعها معي في الكيس كي لا تدخلها مياه البحر، فقط هاتف مجد يجب أن يبقى بيده كي يتصل بخفر السواحل في حال احتاج الأمر لذلك، اقرؤوا آيات القرآن وادعوا الله طول الطريق..

جلست أتأمل المشهد بقلق. الجميع يشعر بالتوتر، والخوف يزداد كلما طال وقت الانتظار..

أمواج البحر تهدأ تارة وتضج تارة أخرى. أعماق البحر تمتلئ بالقصص والأسرار الدفينة التي لم يشعر بها إلا من عاشها..

أخذت الأمواج تحدثني وتحكي لي قصة أحمد وعلي وسمر وريم و و و..

كل واحد منهم كان يحلم بالوصول إلى بر الأمان ليعيش حياة كريمة..

لم يكن يعلم أحدهم أنه أبحر هاربا من معركة الأرض ليخوض معركة البحر وحده.

لم يكن يدري أن المعركة الأشرس هي التي يخوضها المرء وحيدا فيتغلب عليه الموت..

الإبحار إلى المجهول كان ينتظرنا.. فإما أن تلطف بنا أقدارنا كي نصل لمطلبنا..

أو أن نعارك البحر حتى نلقى حتفنا المشؤوم..

أبي كان متوترا بشدة لكنه لم يكن يحاول إظهار ذلك. كان يريد أن يعطينا الأمل والقوة. كان يريد أن يحتضن خوفنا ليدفنه في أعماق البحر ويستبدله بالأمان. كان يشعر بالمسؤولية تجاه قراره بالإبحار بنا إلى حياة لا حرب ولا ذل فيها..

أمي كان الخوف ظاهرا عليها وبشدة. نظرت في عينيها فرأيت داخلهما الحسرة والقلق. لم تكن تستطع فعل شيء آخر، فقد حاولت جاهدة أن تجعل حياتنا أجمل، وأن تعطينا السعادة والراحة. لكنه القدر..

مجد كان يحاول السيطرة على الوضع وتهدئة النفوس..

الجميع كان يتظاهر بالقوة ويبتسم..

لكن داخل القلوب كان الخوف مخيما..

بعد ساعة تقريبا وصلت القوارب وبدأ المهاجرون يصعدون إليها..

كان هناك رجلان تركيان يلقيان الأوامر علينا (المهرب ومعاونه)..

كانا يصرخان على الناس، كي يصعدوا بسرعة دون اعتراض..

صعد إلى القارب الأول عدد كبير من المهاجرين (ما يقارب 60 شخص أو أكثر) وانطلقوا..

ثم تلاه القارب الثاني والثالث..

نظرنا إلى بعضنا بخيبة وصمت..

قلت لأبي :

- ألم يقل لك عمر أن العدد محدد داخل القارب؟ لماذا كذب علينا!

- اصبري قليلا يا سارة.. إن بقي الحال هكذا لن نكمل الرحلة بل الأفضل أن نعود أدراجنا.

- أبي هل يعقل أن نعود بعد أن قطعنا تلك المسافة كلها؟

- نعم، أليس ذلك أفضل من خوض رحلة الموت!

اتجه أبي للمهرب وتحدث معه بهدوء، لكن الرجل كان يصرخ ويطلب منا الصعود إلى القارب فقط..

كنا منهكين حقا فقررنا المجازفة وإكمال ما بدأنا به.

صعد إلى ذاك القارب أكثر من 60 مهاجرا. جلسنا فوق بعضنا تقريبا حيث لم يبق مكان لنحرك ساكنا..

جلس أحدهم بجانب المحرك وانطلق بنا.

كان ذاك السائق قلقا لا يعرف كيف يتجه وكيف يقود وكأنه يقود للمرة الأولى في حياته. بعد دقيقتين فقط من الإبحار توقف المحرك عن العمل.

زاد الخوف في قلوبنا وبدأ الجميع يلوم السائق لأنه قاد القارب بسرعة. لم يكن الرجل عربيا ولم نكن نفهم عليه كلمة واحدة لكن كل الذي عرفناه أنه لا يعرف شيئا عن القيادة..

قرر أبي تولي زمام الأمور، فبدل مكان الجلوس بينه وبين السائق وأخذ يعيد تشغيل المحرك من جديد..

استغرق الأمر عدة دقائق حتى برد المحرك قليلا ثم بدأ يعمل ثانية..

قاد أبي القارب بكل عزم وتحد. كنت أنظر إليه أرى بعينيه قوة نابعة من الخوف. خوفه علينا وعلى الأرواح المسافرة معنا..

كان يشعر بالمسؤولية تجاه كل طفل، كل امرأة وكل رجل أيضا..

أمواج البحر كانت كمشاعري آنذاك هادئة، لكن ما إن وصلنا لعمق البحر حتى بدأت تعلو وتشتد ثم تهدأ وتنخفض وهكذا..

ذكر الله والدعاء لم يغب عن لساني لحظة. الشمس أرسلت لأجسادنا القليل من الدفء ولأرواحنا الكثير من الأمل..

***

مشاعر

أمواج البحر حين اضطربت، استرجعت شريطا من ذاكرتي..أيقظت خليطا من مشاعري..

كالحب قيدتني ما بين الحياة والموت..

ما بين القوة والضعف..

لكنها أنستني النسيان الذي قطعته عهدا على نفسي..

فاستوطن الحنين هنا ما بيني وبينك..

قلبي مازال مرهقا منك..

أظن أني لن أتوب عن أشواقي المفرطة..

مازلت مريضة، مسلوبة القوى، ثائرة على كل ما فيك..

فهلا منحتني القليل من عطفك كي أقوى على ذاتي!

هلا أرسلت لروحي شيئا من ضحكاتك الشقية كي أدفن بها حزني وهمي!

هلا اعتذرت لي فأصفح عنك وأحبك من جديد!

رغم أن حبك لم يغب ولم يرحل عني منذ زمن بعيد..

هلا خلعت عن كتفي ذاك الحمل الثقيل، وأعدت لي قلبي الغارق في جبل الجليد....

خذ ما تبقى من أشلاء روحي واسقني جرعات من سموم الحب كما تريد...

كادت الأمواج تخترق قاربنا الصغير.

أحسسنا بالخطر يقترب فبدأنا نرمي حقائبنا وكل شيء حملناه في جعبتنا إلى أعماق البحر..

رميت حقيبتي التي كنت قد جمعت بها أحب الأشياء إلى قلبي (رسائلك وأول وردة أهديتني إياها) والقليل من أشيائي الخاصة..

ضاع كل شيء حملته. لم يتبق شيء من الماضي سوى الذكرى..

اقتربنا كثيرا من الجزيرة اليونانية، لكن فجأة توقف المحرك مرة أخرى..

انتظرنا عدة دقائق ثم حاول أبي تشغيل المحرك لكنه لم يكن يعمل. كانت محاولاته كلها تبوء بالفشل.

بدأ القارب يبتعد عن الجزيرة شيئا فشيئا. كانت الأمواج تحركه وتقذفه ببطء..

لم يكن أمامنا سوى الاتصال بخفر السواحل..

أخي مجد اتصل بهم مرة، مرتين وعشرة لكن لا أحد يجيب!

القلق والرعب عم أرجاء القارب.. بدأت الأصوات تعلو والقلوب تحتضن بعضها خوفا من المجهول!

فكرة الغرق بدأت تستحوذ عقولنا! حتى الأطفال بدؤوا بالصراخ عاليا..

فوضى خوف وضياع! إلى أين سوف تأخذنا أقدارنا؟

صرخ مجد بصوت عال :

- اهدؤوا جميعا وكفاكم صراخا، أنا سوف أسبح إلى الشاطئ وأنقذكم لا تخافوا فقط اصبروا..

- لا لن تذهب (قاطعته أمي باكية)

- لا تقلقي يا أمي سوف أذهب وأعود مع المنقذين إن شاء الله..

- وأنا سوف أذهب معك (أحد الشباب معنا)

كان القرار صعبا لكنه الأفضل من بين عدة خيارات أخرى..

نزل مجد والشاب إلى الماء، سبحوا باتجاه الشاطئ. لم يكن بوسعنا سوى أن ندعوا لهم ونحاول أن نتبعهم بأعيننا..

مر الوقت ببطء شديد وكان الانتظار طويلا مقلقا..

بعد أكثر من ساعة تقريبا جاء قارب الإنقاذ باتجاهنا، تم نقلنا إلى القارب الآخر ثم إيصالنا إلى بر الأمان..

وهكذا وصلنا وسط فرحة عارمة إلى جزيرة كوس اليونانية بفضل الله..

وبمساعدة أخي البطل الذي التقينا به عند وصولنا وكانت فرحتنا بنجاته لاتوصف..

استغرقت رحلتنا في البحر ما يقارب الأربع ساعات..

في تلك الجزيرة كانت أعداد المهاجرين كبيرة. تم توزيع وجبة طعام علينا عند وصولنا، ثم جلسنا في إحدى الخيم ونمنا فيها على الأرض من شدة التعب..

أكملنا طريقنا في اليوم التالي إلى أثينا عاصمة اليونان عن طريق الباخرة..

ثم تابعنا الطريق الطويل مع المهاجرين عبر القطارات والحافلات..

ومشيا طويلا على الأقدام استغرق ساعات طويلة تحت المطر وبين المخاطر..

عبرنا حدود بلاد كثيرة.. كان الطريق متعبا حقا..

البرد في الليل قارس جدا.. ونحن نمشي ونمشي حتى آخر رمق..

انتظار طويل بين حشود المهاجرين ثم نوم على الأرصفة أو تحت سقف الخيمة الهزيلة..

من اليونان إلى مقدونيا ثم صربيا ثم هنكاريا انتهاء بالنمسا..

تلك كانت رحلة اللجوء التي عشتها مع آلاف المهاجرين الهاربين من حروب وظلمات لا تعد ولاتحصى..

***

منذ سنة تقريبا أنا وأسرتي استقر بنا الحال في فيينا عاصمة النمسا. فيينا المدينة التي تسحر كل زوارها برونقها الخاص وتصميمها المعماري الرائع الذي جل ما يميزه المتاحف الأثرية والفن القديم المدهش..

منذ أن سكنت هنا وأنا أشعر بانتمائي لعراقة البلد ونقاء أصالتها..

كم هو جميل العيش في مكان آمن، تسكنه طبيعة في غاية الروعة، تصميمه الأثري في غاية الفخامة وهواؤه عليل نقي..

لكنه يفتقد شيئا ثمينا. شيئا لا يمكن لمسه إنما يمكنني الإحساس به..

(الروح) أظن أن كل من عاش الغربة أحس بغياب روح الوطن.

تلك التي بقيت ومازالت في بلدي حتى لو سكنتها حروب العالم أجمع. سوف تبقى روح سورية تأسرني حتى آخر رمق في عمري..

كما كنت أحلم دخلت مدرسة تعليم اللغة الألمانية. اجتزت امتحانين بالنجاح بدرجة جيدة، ومازلت أتابع دراستي كي أكمل تعليمي..

الكثير من الشباب تقدموا لطلبي للزواج، لكنني لست مستعدة لتلك الخطوة بعد..

اليوم بينما كنت جالسة في غرفتي أقلب صفحات الانترنت كعادتي. كنت أشعر بالملل بالتعب والإرهاق.

دانا أخت رامي مازالت ضمن قائمة أصدقائي على موقع فيسبوك.

كنت أحادثها كل حين وحين لأطمئن عنها وعن عائلتها..

لكنها نشرت أسوأ خبر قد رأيته..

حين قرأت ذاك الخبر شعرت كأنما صاعقة وقعت فوق رأسي..

مات؟ هل يمكن ذلك!

لا إنه مازال حيا لا أصدق ولن أصدق!!

رامي حبيبي مات؟

ما الذي تقوليه يا دانا؟ هل أنت متأكدة أرجوك ردي علي!

اتصلت بها لكنها لم ترد ثم بعد مدة كتبت لي :

سارة حبيبتي نحن مصدومون مثلك بخبر استشهاده. لقد أرسلوا لنا جثته البارحة واليوم دفناه. سامحيه يا سارة، كان رامي دائما يسألني عنك ويقول لي (لا تخبريها شيئا عني فأنا لا أستحقها، اتركيها تنسى وجودي فأنا لن أعود وسوف أموت هنا، حين أموت قولي لها أنني مازلت أحبها وأني حزين جدا على فراقها، أرجوك يا دانا قولي لها أن تسامحني فقد تركتها عنوة لا اختيارا، قسوت عليها كي تكرهني وتنسى حبي لها، قسوت كي لا أظلمها بعد موتي وأقهرها. قسوت على

قلبي من شدة عشقي لها، والله يا أختاه إني بقدر ظلم الحرب أحبها، والله إني مازلت كل ليلة أدعو لها. قولي لها أنني بعد موتي سوف أعشقها)

حين قرأت تلك الرسالة رميت هاتفي وجلست في زاوية الغرفة وحدي أنا ودمعتي وقلبي الممزق..

شعرت بالبرد يعصف في جسدي، دموعي التي سالت غسلت كل الماضي من ذاكرتي. لم يتبق في ذاكرتي إلا أنت.. أنت فقط سوف تبقى إلى الأبد في قلبي. رامي يا حبي الأوحد يا قدري.. لقد سامحتك منذ زمن بعيد. لم تكن بعيدا عني يوما. كنت معي ولم تكن.. أنا اليوم محطمة القلب منهكة القوى.. أنا اليوم لا أرغب بالحياة، إنني حقا أريد الموت كي أكون معك.

خبر موتك أرهقني لكنه جعلني أقترب أكثر من ربي.. أنا اليوم أصلي كي أدعو لك بالرحمة، أصلي كي أدعو الله أن يصبرني على مصابي، أصلي كي يجمعني الله بك في الآخرة..يارب أنا مؤمنة بقضائك، مؤمنة برحمتك وعطفك علينا، فهب لنا الغفران وأعنا على النسيان.. آمين.

***

مشاعر

من أنت يا رامي؟

كيف اقتحمت بكل هدوء، ضجيج ليلي البائس، فزدته بؤسا!

كيف أجهضت من أعماق روحي، تلك السعادة التي لم تخلق بعد!

وما الذي جاء بك إلى دنياي الفقيرة بالفرح وشتلات الورد، الغنية بأشلاء ضحايا الحرب!!!

قل لي من أنت؟

كيف سمحت لنفسك بخوض معارك الحب،

داخل رأسي المرهق من أصوات الرصاص والتفجيرات القاتلة!!

ها قد رحلت مبكرا، مستعجلا..

نعم رحلت قبل الأوان وقبل الرحيل ، لكنك باق في أطياف ذاكرتي!

ما زلت عالقا بين أمطار الشتاء وأوراق الخريف الصفراء..

ما زالت كلماتك تائهة بين كلماتي المبعثرة، أكتبها، أرددها دون قصد..

ما زلت أنطق اسمك بأحلامي، وأتلعثم به ضمن عثراتي وزلات لساني..

ما زلت أشتم عطرك في كل زهرة ياسمين، وبكل شجرة وحبة تراب بعد ليلة ماطرة..

أنت جرح القلب يا رامي!

أنت ندبة الحرب التي لن يستطيع أمهر أطباء التجميل ترميمها!

أنت شمعة الألم التي لا تنطفئ أبدا..

***

الموت هو القدر الذي يجعل لحياتنا عبرة. هو الحقيقة المرة التي لا بد أن نعيشها..

يبقى الأموات أحياءا في قلوب أحبابهم مهما مر من الزمن على رحيلهم..

مضت الأيام مسرعة حتى ظننت أن كل حياتي السابقة كانت حلما!

ها قد عاد البرد.. عاد المطر.. عادت رائحة الأوراق الصفراء تنعش روحي..

الخريف حقا يسحرني بإطلالته التي أهيم بها حبا..

جلست تحت الشجرة في إحدى الحدائق، أراقب أوراقها التي تساقطت فوق رأسي كأنها ورود وكأنني عروس الخريف.. نسمات الهواء تداعب شعري الأسود.. صوت حفيف الأشجار يعزف أروع موسيقى وأعذب لحن..

هو احتفال بين نفسي وبين الطبيعة الخلابة.. هو ذاك السلام الداخلي بين ذاتي وأحزاني..

مقعد الحديقة قد أرهقته قصص العشاق وحكايات وشجارات كان شاهدا عليها..

أرهقته روايات الحب والحزن والفراق..

وذلك الغصن كان حضنا دافئا لأجساد أتعبها الألم..

رفعت رأسي للسماء وأغلقت عيناي ثم بدأت أتأمل..

تأملت ذاتي التي شهدت معاركا كبيرة في أعماقها..

جلست أناظر الشجار ما بين أحزاني ونفسي التي تطمح لحياة سعيدة..

كان شجارا عنيفا، اقتربت منهما، أعطيت كلا منهما قطعة من الحلوى كي يتصالحا، وانتظرت..

بعد قليل أخذا يلعبان ويضحكان سويا. ابتسمت راضية ممتنة لما فعلت..

كان لا بد لي من جلسة سلام داخلي تمنحني القوة والرضا..

السلام هو الجزء العظيم الذي نمنحه لأنفسنا لنسعدها قدر استطاعتنا..

هو الحلم الذي أتمنى تحقيقه في وطني وجميع الأوطان الغارقة بالحروب..

بعد حدة الشجارات وعنفها، لابد من اللجوء للسلام الداخلي..

لا بد للأطراف المتحاربة الإعتراف بأخطائها والتصالح مع بعضها..

السلام يبدأ من فكرة التصالح مع أحزاننا وأخطائنا.. التسامح من قبل ذواتنا.. ورضانا عن أنفسنا..

حين ننظر لماضينا نظرة عابرة نجد أن الحياة أعطتنا دروسا ثمينة. القدر لم يكن يخالفنا والحظ لم يكن يعاكسنا..

بل كانت الحياة عبارة عن رواية منسقة بحكمة ربانية عظيمة..

كل شخص منا هو بطل روايته، بطل تجاربه الخاصة.

الحزن لابد من وجوده في حياتنا، ليس علينا الخضوع إليه إنما التعايش معه.

حين نتعلم التعامل مع صعوباتنا وأحزاننا وأخطائنا سوف نصل لمرحلة الرضا.

تلك المرحلة تمكننا من استشعار ذواتنا والتعرف على القوى التي منحها الله لنا..

***

01.11.2017

في يوم ميلادي السادس والعشرين أردت أن أحتفل وحدي..

انتظرت الليل كي أجعل احتفالي راقيا.

الكثير من الأهل والأصدقاء أرسلوا لي التهاني والمعايدات مع العديد من الصور والكلام المعسول والأدعية القلبية..

كل ذلك كان عبر الانترنت (العالم الوهمي) الذي كان قد ذكرهم بيوم ميلادي تلقائيا..

كان يومي عاديا بل وأقل من ذلك..

لم نعد نشعر بمتعة أعيادنا.. ولا بمتعة المعايدات ولا حتى الكلام الشعري الرقيق.

كل شيء حولنا بات عاديا.. كل شيء في حياتنا الكترونيا..

حتى كلامنا، اتصالنا، ومثاليتنا.. كلها ادعاءات ومجاملات وكذبات..

تبلدت أحاسيسنا حتى أصبح الموت والظلم شيء اعتيادي لا قيمة له..

فقدنا الكثير من عناصر الحياة السابقة (الحياة الطبيعية التي عشناها يوما)

حتى أمسينا على أضواء هواتفنا في الليالي الباردة بدل ضوء القمر..

في هذه الليلة فتحت نافذتي نظرت خارجها. إنه القمر أراه بدرا كاملا (كوجهك). نوره ساطع يملأ الدنيا بما فيها (كنور عينيك). تأملته وتذكرت

تفاصيلك التي تشبهه حقا. الجو بارد جدا وأنا أقف أمام نافذتي أرتدي معطفي وأضم يداي داخله كي أخفف البرد عن جسدي..

كثيرون هم من يستمعون إلى أغاني فيروز في الصباح مع فنجان القهوة، لكنني لست مثلهم. ومن قال أن فيروز للصباح فقط؟

فيروز لكل الأوقات! لاسيما في الليل حين يضطرب القلب من نفحات الشوق الجامح..

وما أدفأ صوتها الليلة وهي تغني وكأنما تحكي قصتي:

(أنا يا عصفورة الشجن.. مثل عينيك بلا وطن.. بي كما بالطفل تسرقه.. أول الليل يد الوسن.. واغتراب بي وبي فرح.. كارتحال البحر بالسفن..أنا لا أرض ولا سكن.. أنا عيناك هما سكني..)

***

أطفأت ضوء الغرفة وأشعلت شمعتي..

أغلقت عيناي وتخيلتك معي ها هنا. تحتضن ألمي وتعطف على قلبي المنكسر. تذكرت يوم لقائي بك في ذاك المبنى المهجور العتيق. حين كان البرد دفئا والرصاص يعزف أنغاما وحبا..

تذكرت دموعك حين اختلطت بقطرات المطر تحت نافذتي. تذكرت ضحكة وجهك التي لا مثيل لها.

وآه من تلك الذاكرة كم هي متعبة..

تذكرت وطني، أصدقائي وعيد ميلادي في قلعة حلب، جدتي، جمعة الأهل والسهرات الحلوة في سوريتي..

تلك الأيام لا تنسى.. تلك الذكريات لا تموت أبدا..

حتى لو مات كل شيء قد خلدته ذاكرتي، سوف تبقى داخل أعماق قلبي وحدك (أنت)..

فتحت عيناي بعد أن أغرقتهما الدموع، ابتسمت لأجلك، دعوت لك، وأطفأت شمعتي..

***

تمت

رنيم زيداني

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع